القافلة

رجب ١٤٠٤هـ ابريل/مايو ١٩٨٤م

جولة في الحمراء:

الأثر الإسلامي الخالد في غرناطة



استخدم الانسان عضلاته في رفع الأحمال قبل ابتكار الروافع الميكانيكية.

بسم الله الرحمن الرحيم

القافلة
THE CARAVAN

APRIL / MAY 1984

العدد السابع / المجلد الثاني والثلاثون
رجب ١٤٠٤هـ ابريل / مايو ١٩٨٤م

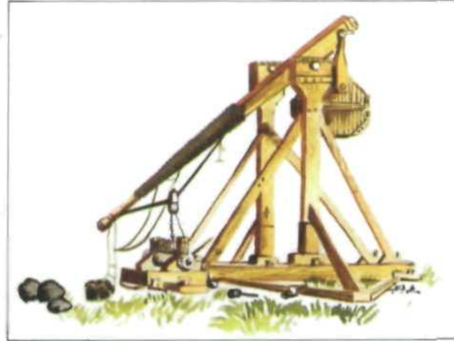
تصدر شهرياً عن شركة أرامكو لموظفيها
إدارة العلاقات العامة

العنوان

صندوق البريد رقم ١٣٨٩
الظهران - المملكة العربية السعودية

توزع مجاناً

المدير العام : فيصل محمد البسام
المدير المسؤول : إسماعيل ابراهيم نواب
رئيس التحرير : عبدالله حسين الغامدي
المحرر المساعد : عوني أبوكشك


صور من التقنية العربية عبر العصور


جولة في الحمراء.. الأثر الاسلامي الخالد في غرناطة

صورة الغلاف:

فناء الأسود وهو أهم معالم الحمراء وله شهرة عالمية

تصوير: شيخ أمين

تصميم وطباعة شركة مطابع المطوع - الدمام
DESIGNED AND PRINTED BY AL-MUTAWA PRESS CO. DAMMAM

أضواء على الأسراء والمعراج

بقلم: د. أحمد جمال العمري / جدة

إننا حينما نريد أن نكون صورة تامة واضحة عن رسول الله، فان الطريق الوحيد لذلك انما هو الاحاطة بالقرآن احاطة واضحة تامة. والاحاطة بالقرآن على هذا النسق ليست من السهولة بمكان، بل ليست ممكنة. فالقرآن في كل يوم يفتتح عن معان جديدة للانسانية. ويفتتح عن معان جديدة للشخص المتأمل المتدبر، وهذه المعاني الجديدة، انسانية عامة، أو فردية شخصية، انما هي ايضاح وتفسير للصورة النبوية الكريمة.

والعكس أيضا صحيح، فان المتأمل المتدبر في الصورة النبوية الكريمة عن طريق السيرة العطرة، والأحاديث الصحيحة، يفهم عن الرسول — صلى الله عليه وسلم — كل يوم جديدا. وهذا الفهم انما هو تفسير وايضاح لجوانب من القرآن الكريم.

لقد ارتفع، صلوات الله وسلامه عليه، الى السماء، بل وتجاوزها الى سدرة المنتهى، ورأى من آيات ربه الكبرى. لقد ارتفع الى الأفق الأعلى، وتجاوز بذلك النهايات، الكونية. لقد كان فعلا.. أدنى من قاب قوسين، فانغمس في الأفق الأعلى، وتلقى عن الله سبحانه كيفية الصلة به، وهي الصلاة.. ثم.. ثم انبسط الى الأرض سراجا منيرا، رؤوفا رحيما، هاديا يدعو الى الله على بصيرة هو ومن اتبعه. وهنا نصل الى نقطة انطلاقنا وموضوع بحثنا لنتساءل: لماذا كان الاسراء والمعراج؟ وهل كان مناما أم بالجسد والروح؟ وماذا رأى الرسول في معراجه.. وماذا سمع؟ هل رأى الرسول ربّه؟

لماذا كان الاسراء والمعراج.. ومن مكة بالذات؟

اختار الله سبحانه وتعالى لانطلاق هذا الدين «أول بيت وضع للناس» ليكون هو المكان الذي تبعث منه الدعوة الجديدة. ان مكة قد أخذت على كل القرى في الجزيرة العربية مكان الصدارة، ومكان السيادة. وبالتالي أخذ سكانها من قريش مكان السيادة والعزة والجاه، فكانت هذه السيادة والعزة والجاه هي التي تجعل لقريش المهابة في الجزيرة العربية كلها. وشاء الله أن تكون الدعوة الاسلامية — بداية منطلقها في مكة. حتى تكون الدعوة في مسمع هؤلاء السادة الذين لهم الجاه، ولهم العظمة، ولهم السيطرة. ولايستطيع أحد أن يقف أمام جاههم ونفوذهم وسيطرتهم. فحين تجيىء الدعوة في هذه المسامع، وحين تواجه الدعوة بهؤلاء القوم. الذين لهم هذه المهابة المطلقة — يكون الاسلام قد اختار قمة الميادين لهذه الدعوة.

وحينما أمر الله محمدا أن يجهر بالدعوة عاداه القوم عداء بلا هوادة ولكن هذا العداء لم يمنع أن يتسرب هدى الايمان الى نفوس كثير من الناس من عشيرته الأقربين. ومن قومه الذين يعلمون صدقه فيما سبق. فأخذوا صدقه بما سبق دليلا على صدقه فيما جاء به. وأنه لم يكذب عليهم حتى في أمور بينهم. فكيف يكذب على الله.

وكان صلى الله عليه وسلم — وهو بصدد جهره بالدعوة. في حاجة ماسة الى أن يحمى حمايتين: حماية داخلية، وحماية خارجية، حماية له ساعة راحته وسكونه وهدوئه في البيت. فكانت السيدة خديجة — رضي الله عنها — في الداخل — هي السكن الذى يلجأ اليه رسول الله في البيت. فتمسح بيدي الحنان. وبيدي العطف عنه مايعانيه من حركة الحياة التي يحياها.. وكان أبو طالب — عمه — يحميه في الخارج من أذى الكفار وأذى المشركين. وربما كان كفر أبي طالب سببا من الأسباب التي جعلت الكفار يجاملونه بعض المجاملة. فكأن الحق سبحانه هيأ لحمايته صلى الله عليه وسلم —

ولنصرته ومؤازرته مصدرا ايمانيا في الداخل — كان من خديجة، ومصدرا كفريا في الخارج كان من أبي طالب. فحين يكون هذان المصدران بجوار رسول الله تكون حياته في الخارج مكفولة الحماية بسبب عمه، وفي الداخل مكفولة الأمن والاطمئنان والاستقرار بواسطة زوجه ولكن شاء قدر الله ان تموت زوجه خديجة في العام الذي يموت فيه عمه أبو طالب. ففقد الرسول السكن الذي يأوي الى حنانه، كما فقد الحماية الخارجية.

وهنا لابد لنا من وقفة لنقول: ان الانسان الذي يمده الله بالأسباب، عليه أن يستعمل هذه الأسباب، وأن يجتهد وسعه في أن يستخدمها في الوصول الى أهدافه، وحين يلجأ الى الله ومعه الأسباب يرد الله رجاءه، لأنه لا تزال معه الأسباب، ولكن اذا ماأصبح المرء مضطرا، وقد أعيته الأسباب، فله أن يلجأ الى الله يسأله النصر والعون، لأن الأسباب قد امتنعت والمقدمات لم تعد في مقدور البشر.

لذلك وقف الرسول موقفه الضارع من الله، وقال دعاءه المؤثر المشهور:

«اللهم اليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس.. ياأرحم الراحمين: أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، الى من تكلني.. الى بعيد يتجهمني، أم الى عدو ملكته أمري، ان لم يكن بك عليّ غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، من أن تنزل بي غضبك، أو تحل عليّ سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة الا بالله».

دعاء فيه كل مقومات الايمان واليقين، لأن الله الذي أرسله لن يخذله، ودعاء أيضا يشمل أن رسول الله قد استنفد الأسباب، وأنه لم يجد الا عدوا.. والا بعيدا، فلابد اذن أن تتدخل السماء. سمع الله سبحانه ضراعة رسوله، وأراد أن يبين له أن جفاء الأرض لا يعني أن السماء قد تخلت عنه ..» سأعوضك يامحمد عن جفاء الأرض بحفاوة بالسماء، وعن جفاوة عالم الناس، بحفاوة عالم الملأ الأعلى، وأريك يامحمد من آياتي، ومن قدرتي، ومن أسراري في كوني مايعطيك طاقة وشحنة.. ان الله الذي أراك هذه الآيات لقادر على أن ينصرك، ولن يتخلى عنك..».

اذن فقد كان حدث الاسراء وحدث المعراج بعده — نتيجة لجفوة الأرض لرسول الله، ونتيجة لفقد النصير، فالله سبحانه وتعالى شاء أن يجعل لرسول الله هذه الرحلة العلوية، حتى يثبت له تكريمه، وحتى يثبت له أن في الله عوضا عن كل مفقود، وأن الملكوت سيحتفي به حفاوة تمسح عنه كل عناء هذه المتاعب، وسيعطيه شحنة قوية لتكون أداته في منطلقه الجديد.

على أن بعض العلماء يربطون بين حدث الاسراء والمعراج، والاحتفال بميراث النبوة(١) الذي آل الى الرسول بوصفه خاتم الأنبياء والمرسلين، وتوليه أمامة الدين كله، ونقل النبوة والرسالة من فرع اسحاق إلى فرع اسماعيل — أبي العرب — وجدّ النبي صلى الله عليه وسلم. ولهذا كان اسراؤه الى المسجد الأقصى ببيت المقدس، وعروجه منه الى مافوق السموات العلا — لا من المسجد الحرام بمكة — الذي هو أقرب له وأفضل، للجمع بين عقائد التوحيد في الديانات السابقة، والربط بين أماكن العبادة. وبيت المقدس من بناء يعقوب عليه السلام، وبينه وبين المسجد الحرام أربعون عام، وهو مبعث رسل بني اسرائيل وأنبيائهم، ولقد مثل له،صلوات الله وسلامه عليه،الأنبياء والمرسلون في ساحة المسجد الأقصى، وصلى بهم اماما، وكانت هذه الامامة رمزا الى أن محمدا خاتم النبيين، بعثه الله بدين خاتم الأديان، بكتاب جامع لأصول الديانات ومقاصدها، وأمهات الفضائل التي دعا اليها كل نبي قبل محمد،عليه الصلاة والسلام. وفي هذا يقول المولى عز وجل: «**شرع لكم من الدين ماوصّى به نوحا والذي أوحينا اليك، وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه**» (٢).

ماهو الاسراء ؟.. وماهو المعراج ؟ ومتى كان؟

ان أعظم الخوارق التي أكرم الله بها نبيه محمد — صلى الله عليه وسلم — تلطفا به، وايناسا له، وتقوية لمعنوياته وتعزيزا لمركز دعوته، رحلتا الاسراء والمعراج. وهما رحلتان مباركتان، احداهما أرضية، وهي الاسراء، بدايتها المسجد الحرام بمكة، ونهايتها المسجد الأقصى بالقدس، في مسافة تبلغ ٢٥٠٠ كيلومتر تقريبا.

وقد سجل القرآن العظيم أخبار هذه الرحلة في سورة الاسراء بقوله: (**سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى، الذى باركنا حوله لنريه من أياتنا انه هو السميع البصير** (٣). والرحلة الثانية — رحلة قدسية سماوية، بدايتها من حيث انتهت الرحلة الأرضية، من المسجد الأقصى الى السموات السبع العُلا، الى سدرة المنتهى، الى حيث تشرف الرسول الكريم بحضرة القدوس، ورأى من آيات ربه الكبرى، ونهايتها في المسجد الحرام بمكة. وقد سجل القرآن الكريم أخبار هذه الرحلة السماوية في سورة النجم بقوله: (**والنجم اذا هوى، ماضل صاحبكم وما غوى، وماينطق عن الهوى، ان هو الا وحي يوحى، علمه شديد القوى، ذو مرة فاستوى، وهو بالأفق الأعلى، ثم دنا فتدلى، فكان قاب قوسين أو أدنى، فأوحى الى عبده ماأوحى، ماكذب الفؤاد مارأى، أفتمارونه على مايرى، ولقد رآه نزلة أخرى، عند سدرة المنتهى، عندها جنة المأوى، اذ يغشى السدرة مايغشى، مازاغ البصر وماطغى، لقد رأى من آيات ربه الكبرى**) (٤).

أما زمن الاسراء والمعراج، فقد اختلف العلماء في تحديده.. في العام والشهر واليوم الذى حصل فيه. فيرى ابن اسحاق أن الاسراء برسول الله كان ليلة السبت لسبع عشرة خلت من رمضان قبل الهجرة بثمانية عشر شهرا. ويرى ابن هشام أن الاسراء كان قبل وفاة السيدة خديجة رضي الله عنها. ويرى ابن سعد في الطبقات — عن عائشة وأم هانئ، وابن

(١) الشيخ ابراهيم النشار — من وحي الاسراء والمعراج ص ٢٥ طبع المجلس الأعلى للشئون الاسلامية ١٩٨٠.
(٢) الشورى ١٣.
(٣) الاسراء ١.
(٤) النجم ١ — ١٨.

أضواء على الاسراء والمعراج

عباس، أن رسول الله أسري به ليلة سبع عشرة من شهر ربيع الأول قبل الهجرة بسنة. ويحكي القريزي — قول ابن شهاب الزهري: كان الاسراء قبل الهجرة بثلاث سنوات، وقيل لسنة واحدة. بيد أن أكثر العلماء والمفسرين يحددون يوم الاسراء بأنه ليلة السابع والعشرين من شهر رجب.

يحدثنا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — عن هاتين الرحلتين فيقول — فيما رواه عنه أنس بن مالك رضي الله عنه: (.. أتيت بالبراق — وهو دابة أبيض طويل فوق الحمار ودون البغل. يضع حافره عند منتهى طرفه. فركبته حتى أتيت بيت المقدس. فربطته بالحلقة التي يربط بها الأنبياء. ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين. ثم خرجت. فجاءني جبريل باناء من خمر، واناء من لبن. فاخترت اللبن. فقال جبريل: «هديت للفطرة». ثم عرج بنا الى السماء. فاستفتح جبريل. فقيل: من أنت؟ قال جبريل. قيل ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد بعث اليه. قال: قد بعث اليه. ففتح لنا. فاذا أنا (بآدم) صلى الله عليه وسلم، فرحّب بي، ودعا لي بخير. ثم عرج بنا الى السماء الثانية. فاستفتح جبريل. فقيل: من أنت؟ قال: جبريل. قيل ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد بعث اليه؟ قال: قد بعث اليه. ففتح لنا. فاذا أنا بابني الخالة (عيسى بن مريم ويحيى بن زكريا) صلى الله عليهما. فرحبا بي ودعوا لي بخير. ثم عرج بنا الى السماء الثالثة. فذكر مثل الأول. ففتح لنا فاذا أنا (بيوسف) صلى الله عليه وسلم. واذا هو قد أعطي شطر الحسن. فرحب بي، ودعا لي بخير. ثم عرج بنا الى السماء الرابعة. وذكر مثله. فاذا أنا (بادريس) فرحب بي ودعا لي بخير. قال الله تعالى(**ورفعناه مكانا عليّا**). ثم عرج الى السماء الخامسة. فذكر مثله. فاذا أنا (بهارون) فرحب بي ودعا لي بخير. ثم عرج بنا الى السماء السادسة. فذكر مثله. فاذا أنا (بموسى) فرحب بي ودعا لي بخير. ثم عرج بنا الى السماء السابعة. فذكر مثله. فاذا أنا (بابراهيم) مسندا ظهره الى البيت المعمور. واذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون اليه. ثم ذهب بي الى سدرة المنتهى. واذا ورقها كآذان الفيلة. واذا ثمرها كالقلال. قال: فلما غشيها من أمر الله ماغشي تغيرت فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها. وقال: وعند السدرة ينتهي مايعرج به من الأرض. فيقبض منها. واليها ينتهي مايهبط من فوقها فيقبض منها. قال تعالى: (**اذ يغشى السدرة مايغشى**) قال: فراش من ذهب.

ويتابع الرسول المصطفى — صلى الله عليه وسلم — وصفه فيما رواه عنه أبو هريرة. فيقول: (فقيل لي هذه السدرة المنتهى. ينتهي اليها كل أحد من أمتك خلا على سبيلك. وهذه السدرة المنتهى. يخرج من أصلها أنهار من ماء غير آسن. وأنهار من لبن لم يتغير طعمه. وأنهار من خمر لذة للشاربين. وأنهار من عسل مصفى. وهي شجرة يسير الراكب في ظلها سبعين عاما. وأن ورقة منها مظلة الخلق. فغشيها نور. وغشيتها الملائكة .. وعند سدرة المنتهى .. كان قاب قوسين أو أدنى. وهنا حيّا الرسول ربّه: التحيات لله والصلوات الطيبات).. وحياه الله سبحانه وتعالى: (السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته). فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: (السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين). فقالت الملائكة: (أشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له. وأشهد أن محمدا عبده ورسوله). فقال الله تعالى لرسوله: «**سل**. فقال: انك اتخذت ابراهيم خليلا. وأعطيته ملكا عظيما. وكلمت موسى تكليما. وأعطيت داود ملكا عظيما. وألنت له الحديد. وسخرت له الجبال. وأعطيت سليمان ملكا عظيما. وسخرت له الجن والانس والشياطين والرياح. وأعطيته ملكا لا ينبغي لأحد من بعده. وعلمت عيسى التوراة والانجيل وجعلته يبرىء الأكمة والأبرص. وأعذته وأمه من الشيطان الرجيم. فلم يكن له عليهما سبيل.

فقال له ربه: (قد اتخذتك خليلا وحبيبا. فهو مكتوب في التوراة محمد حبيب الرحمن. وأرسلتك الى الناس كافة. وجعلت أمتك هم الأولون وهم الآخرون. وجعلت أمتك لا تجوز لهم خطبة حتى يشهدوا أنك عبدي ورسولي. وجعلتك أول النبيين وآخرهم بعثا. وأعطيتك سبعا من المثاني. ولم أعطها نبيا قبلك. وأعطيتك خواتيم سورة البقرة من كنز تحت عرشي لم أعطها نبيا قبلك. وجعلتك فاتحا وخاتما).

قال النبي،صلى الله عليه وسلم: فأوحى الله اليّ ما أوحى.. ففرض عليّ الصلاة. هذا هو وصف الرسول،صلى الله عليه وسلم،لرحلتيه. وهناك روايات كثيرة حولها ليس مجالنا الآن أن نسردها .. ولقد كان هذا الحديث وغيره مدعاة تساؤل .. هل كان الاسراء مناما أم بالجسد والروح؟ وهل رأى محمد ربه؟ وهل كلمه مباشرة؟

أقول: لقد وصف القرآن أيضا هاتين الرحلتين. وفي وصف القرآن لهما توثيق لهذا الحدث. فحين يأتي النص القرآني بحدث. فليس لنا الا أن نؤمن به لأنه ورد من الله. فليس لعقولنا أن تبحث البحث الجاري في قوانين الأرض وقوانين البشر. لنحاول أن نفهم قوانين الله. ولكن مادام الله هو القائل. فالأمر الذي يجب على المؤمن حينئذ هو التسليم والاذعان دون مناقشة في الكيفية. أو الممكن. أو المعقول. أقول هذا ردا على المتشككين والمنكرين.

تحدث

الاسراء والمعراج — استهله الله تعالى بقوله (**سبحان**). وسبحان حين تقع على الذهن تعطي الانسان طاقة قوية تبعد عنه كل شبه المقارنة. التي تأتي بين قانون المادة الأرضي الانساني البشري. وبين قانون الله. فمعنى (سبحان الله) أن الله منزه في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله. فاذا صدر فعل — قال الله أنه صدر منه .. فيجب تنزيهه عن قوانين البشرية التي نعرفها ونلمسها. وألا نخضع فعل الله الى قانون فعلي. ولذلك استهل الله السورة بقوله(**سبحان**) حتى يكون أول مايقرع الانسان لذلك الحدث العجيب الغريب. الذي تقف فيه العقول — أي تنزيه لفعلي عن أفعالكم أيها البشر. ومعنى ذلك أن قانون الله في الفعل —

وهو فعّال لما يريد — ليس كقانون البشر في الفعل. ثم قوله بعد ذلك (**الذي أسرى**) فالله هو الذي أسرى، ومحمد الذى أسري به، واختار الحق سبحانه لفظا يعطي حيثية تلك التجربة وهو (**بعبده**) وجعل الاسراء (**من المسجد الحرام**) ونهايته(**الى المسجد الأقصى**) ثم ذكر سبحانه العلة من ذلك (**لنريه من آياتنا**) وختم القول بعبارة (**انه هو السميع البصير**).

وهنا نقف قليلا لنتدبر.. لماذا قال الله هنا (**انه هو السميع البصير**؟) سميع لماذا؟ وبصير بماذا؟ كان من الممكن أن يقول القرآن في هذا الموقف الذي يعتمد على القدرة (ان الله على كل شيء قدير) أو أن الله كذا وكذا — أما أن يأتي هنا قوله تعالى (**انه هو السميع البصير**) فهذا دليل على العلة الحقيقية التي استوجبت أن يُسري الله سبحانه برسوله. فقد سمع الايذاء الذي أوذي به رسوله، وقد رأى الله ماتعرض له نبيه من الجفاء والاستهزاء، ومن السخرية ومن الاهانة، كل ذلك كان بمرأى ومسمع من الله. فحين رأى الله ذلك وسمع، أراد أن يريه آياته وعظمته وقدرته على نصره.. فأسرى به.

وقول الله تعالى (**سبحان الذي اسرى بعبده**) ووفقا لقانون الفاعل — وهو ان كل فعل من الأفعال يجب أن يقرن بفاعل — نقول — ان الذي أسرى هو الله، وأن الفعل واقع من الله، فلا يصح أن نؤاخذ محمدا بفعل فعله الله به. فمحمد — صلى الله عليه وسلم — لم يقل (أنا سريت) حتى نرد محمد الى قانون الفاعل، ونقول له كما قال كفار مكة: «نضرب اليها أكباد الابل شهرا وتدعي أنك أتيتها في ليلة؟».

نقول: انه لم يأتها في ليلة، وانما أُتِيَ به، ونقول أيضا للمنكرين والمتشككين.. اذا كنتم صادقين في المقارنة والمناظرة العقلية، وتريدون أن تستشكلوا عليه، كان يجب أن تقارنوا بين فعل منكم وفعل منه، أما أن تقارنوا فعلا منكم بشيء لم يفعله محمد ولم يدعه، فهذه استحالة في المناقشة. بل عليكم أن تصعدوا المسألة الى الله، لأن محمدا كان محمولا على نطاق قوة أخرى — هي قوة الله، أما قوته هو فلا حساب لها. وحين يوجد الفعل من الله يجب أن يلغى قانون البشر. لماذا؟ لأن كل فعل كما يختلف باختلاف فاعله، يختلف بقوة ذلك الفاعل. فما دام الاسراء من الله، ومحمد مصاحب، ومحمول قانون ضعفه البشري على قانون قوة ربه القادر.. اذا قيست المسافة وزمانها بنسبة القوة التي فعلت وهي قوة الله تعالى نجد النتيجة: لا زمن.

وهنا قد يطرح سؤال .. وهو: مادام ليس هناك زمن فلماذا استغرق الحدث ليلة؟ نقول: لأن هناك فارقا بين حدث الاسراء في ذاته كنقلة، وبين مرائي رآها الرسول. فالرسول،صلى الله عليه وسلم، حينما تعرض لمرائي، رآها هو ببشريته وبقانونه، هذه المرائي والمشاهدات هي التي احتاجت للزمن، أما النقلة في ذاتها فلم تحتج الى زمن، لأنها محمولة على قانون من لا يتحكم فيه الزمن وهو الله. هل يقدر أو لايقدر؟ قوته هل تحتاج الى زمن أو لاتحتاج لاتمام هذا الحدث! «**وانما أمره اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون**».

ومن العجيب حقا — أن كفار قريش، الذين عاصروا حدث الاسراء والمعراج، لم يتعبوا أنفسهم في هذا السؤال الحائر.. هل كان الاسراء بالروح أم بالجسد والروح معا؟

ذلك لأنهم لو فهموا أن الاسراء كان بالروح فقط أو كان مناما — لما وقفوا من رسول الله موقفهم هذا ليقولوا له (أتدعي أنك أتيتها في ليلة..) فهم قد فهموا أن الحدث ليس مناما أو حلما، لأن المنام لايمارى فيه، الحلم كذلك وانما قولهم يؤكد أنهم فهموا أنه كان يقظة بروحه وجسمه، والا لما صدر عنهم هذا الاعتراض. فالكافرون بتعنتهم هذا أمام رسول الله خدموا الدعوة خدمة كبيرة، وعرفوا حقيقة الاسراء منذ أربعة عشر قرنا أو يزيد، لأننا نقول لو كانت الرحلتان الأرضية والسماوية رؤية منامية لما ناقش فيها أحد، لأن أي شخص يستطيع أن يقص علينا رؤية بعينها. لذلك فالكافرون والمشركون قد فهموا منذ أول وهلة انها يقظة وبالجسم والروح معا. أضف الى ذلك — أن الحق تبارك اسمه — لما قال «**سبحان الذي أسرى بعبده**» أعطى للحدث حيثية أخرى، لم يقل بمحمد، أو برسول الله، وانما أتى بصفة العبودية لله، التي هي باب العطاء من الله، اذن فقوله: (بعبده) وضع أمامنا الرد — على الذين قالوا: (انه أسري به بالروح) لأن كلمة (العبد) لا تطلق الا على الروح والجسد معا، أو تطلق على النفس حينما يوجد فيها المادة والروح.

وهنا يطرح المتشككون سؤالا آخر وهو: اذا كان الاسراء والمعراج بالجسم والروح معا، وكانا يقظة، وهذا من واقع النص الحديثي والنص القرآني الصريح .. فمعلوم أن طبيعة البشر لا تقوى على مفارقة سطح الأرض الى الجو الا لارتفاع محدود في الجو لا تتعداه، فكيف صعد الرسول الى السماء السابعة وهو بشر؟

— نقول: ان الاسراء والمعراج معجزة، والمعجزة هي الأمر الخارق للعادة، فلا مانع أن يكون صعوده — صلى الله عليه وسلم — وهو بشر، أمر خارق للعادة كذلك. أو يقال— كما ذكر العلماء والمفسرون — ان الله سبحانه وتعالى سلب منه الطبيعة البشرية عند صعوده الى السماء وأبدله بها الطبيعة الملائكية، ليكون ملكا في وطن الملائكة، وبشرا في وطن البشر، وماذلك على الله بعزيز، وأن الله فعّال لما يريد.

ويعجبني في هذا المجال — قول القاضي عياض (١) — وهو من علماء القرنين الخامس والسادس الذي يدل على فهم عميق، وادراك جيد لهذا الموضوع. قال بعد مناقشة الآراء التي طرحت قديما حول — هل الاسراء كان بالروح أم بالجسد والروح معا: «والحق من هذا والصحيح ان شاء الله، أنه اسراء بالجسد والروح في القصة كلها، وعليه تدل الآية وصحيح الأخبار والاعتبار، ولا يعدل عن الظاهر والحقيقة الى التأويل الا عند الاستحالة، وليس في الاسراء بجسده، وحال يقظته استحالة، اذ لو كان مناما لقال سبحانه (بروح عبده) ولم يقل (بعبده)، وقوله تعالى: «**مازاغ البصر وما طغى**» — ولو كان مناما لما كانت فيه آية ولا معجزة، ولما استبعده الكفار، ولا كذبوه فيه، ولا ارتد به ضعفاء من أسلم،

(١) الشفا ج ١٨٧/١ طبع بيروت.

وافتتنوا به، اذ مثل هذا من المنامات لا ينكر، بل لم يكن ذلك منهم الا وقد علموا أن خبره انما كان عن جسمه، وحال يقظته الى ماذكر في الحديث.. ومن ذكر صلاته بالأنبياء ببيت المقدس — في رواية أنس، أو في السماء على ماوى غيره ، وذكر مجيء جبريل له بالبراق، وخبر المعراج، واستفتاح السماء، فيقال: ومن معك؟ فيقول محمد. ولقائه الأنبياء فيها، وخبرهم معه، وترحيبهم به، وشأنه في فرض الصلاة، ومراجعته مع موسى في ذلك.

ويقدم لنا القاضي عياض دليلا ماديا آخر يدعم به رأيه، وهو قول أم هانيء، زوج رسول الله، «ما أسري برسول الله،صلى الله عليه وسلم ، الا وهو في بيتي، تلك الليلة صلى العشاء الآخرة ونام بيننا، فلما كان قبيل الفجر أهبنا رسول الله، فلما صلى الصبح وصلينا، قال: «ياأم هانيء، لقد صليت معكم العشاء الآخرة كما رأيت بهذا الوادي ثم جئت بيت المقدس فصليت فيه، ثم صليت الغداة معكم الآن كما ترون». وهذا بيّن في أنه بجسمه. ويضيف الى ذلك — خبرا عن أبي بكر الصديق — أنه قال للنبي ليلة أسري به: طلبتك يارسول الله البارحة في مكانك فلم أجدك؟ فأجابه — ان جبريل، عليه السلام، حملني الى المسجد الأقصى.

ويختم القاضي عياض كلامه بقوله: وهذه التصريحات ظاهرة غير مستحيلة، فتحمل على ظاهرها. بيد أنه يعود فيعقد في كتابه فصلا في إبطال حجج من قال انها نوم (١)، يقول فيه:

* الذين قالوا ان الاسراء نوم، احتجوا بقوله تعالى: «**وما جعلنا الرؤيا التي أريناك**» فسماها رؤيا.

قلنا: قوله (**سبحان الذي أسرى بعبده**) يردّه، لأنه لا يقال في النوم (أسرى). وقوله (**فتنة للناس**) يؤيد أنها رؤيا عين واسراء بشخص، اذ ليس في الحلم فتنة، ولا يكذّب به أحد، لأن كل أحد يرى مثل ذلك في منامه.

* فان قيل: فقد قال الله تعالى «**ماكذب الفؤاد ما رأى**» فقد جعل مارآه للقلب، وهذا يدل على أنه رؤيا نوم ووحي — لا مشاهدة عين وحسّ.

قلنا: يقابله قوله تعالى: «**مازاغ البصر وما طغى**» فقد أضاف الأمر للبصر. ويمكن تفسير قوله تعالى: «**ماكذب الفؤاد مارأى**» أي لم يوهم القلب العين غير الحقيقة، بل صدق رؤيتها فما أنكر قلبه مارأته عينه من مرئيات.

ويرتبط بكل ماذكرناه قضية هامة: هل دنا محمد من ربه؟ .. وهل كلم محمد ربه مباشرة؟ وهل رأى محمد ربّه؟

قال ابن عباس — في قوله تعالى: «ثم دنا فتدلى، فكان قاب قوسين أو أدنى»: هو محمد دنا فتدلى من ربه .

وقال ابن عباس أيضا: هو مقدم ومؤخر، تدلى الرفرف لمحمد،صلى الله عليه وسلم،ليلة المعراج، فجلس عليه، ثم رفع فدنا من ربه. قال عليه الصلاة والسلام: «فارقني جبريل، وانقطعت عني الأصوات، وسمعت كلام ربي عز وجل».

وقال الحسن: «دنا من عبده محمد،صلى الله عليه وسلم ، فتدلى، فقرب منه فأراه ماشاء أن يريه من قدرته وعظمته.

وقال جعفر بن محمد: أدناه ربه منه حتى كان منه كقاب قوسين، والدنو من الله لا حدّ له، ومن العباد بالحدود. وقال أيضا: انقطعت الكيفية عن الدنو، ألا ترى كيف حجب جبريل عن دنوه، ودنا محمد الى ما أودع قلبه من المعرفة والايمان، فتدلى بسكون قلبه الى ما أدناه، وزال عن قلبه الشك والارتياب.

* بيد أن أكثر المفسرين — ومنهم ابن كثير — يرى أن الدنو والتدلي، منقسم ما بين محمد وجبريل، أو مختص بأحدهما من الآخر، أو من السدرة والمنتهى.

* على أن هذا الدنو والقرب — في رأي القاضي عياض (١) له معنى آخر:

قال: (اعلم أن ماوقع من اضافة الدنو والقرب هنا من الله، أو الى الله، فليس بدنو مكان، ولا قرب مدى، بل ليس بدنو حدّ، وانما دنو النبي،صلى الله عليه وسلم،من ربه وقربه منه، ابانة عظيم منزلته، وتشريف رتبته، واشراق أنوار معرفته، ومشاهدة أسرار غيبه وقدرته، ومن الله تعالى له مبره وتأنيس وبسط واكرام.. ويتأول فيه ما يتأول في قوله: (ينزل ربنا الى سماء الدنيا، على أحد الوجوه، نزول افضال واجمال، وقبول واحسان). ويضيف الواسطي .. ان الدنو عبارة عن نهاية القرب ولطف المحل، وايضاح المعرفة والاشراف مني الحقيقة من محمد،صلى الله عليه وسلم، وعبارة عن اجابة لرغبة وقضاء المطالب، واظهار التحفي، وانافة المنزلة والمرتبة من الله له، ويتأول فيه ما يتأول في قوله: (من تقرب عني شبرا تقربت منه ذراعا، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة) قرب بالاجابة والقبول واتيان بالاحسان، وتعجيل المأمول.

ويرتبط بقضية الدنو والقرب من الله، قضية أخرى هي: مناجاته لله وكلامه معه.. هل كلّم محمد ربّه؟

فأكثر المفسرين — فسروا قوله تعالى: «**فأوحى الى عبده ما أوحى**» على أن الموحي هو الله عز وجل الى جبريل، وجبريل الى محمد صلى الله عليه وسلم،الا قليلا منهم.وذهب، بعض المتكلمين الى أن محمدا كلمه ربه في المعراج، وأيد قولهم ابن مسعود وابن عباس وقال جعفر بن محمد: أوحى اليه بلا واسطة.

وذكر النقاش — عن ابن عباس —عنه، صلى الله عليه وسلم،في قوله تعالى «**دنا فتدلى**» قال: فارقني جبريل، فانقطعت الأصوات عني، فسمعت كلام ربي وهو يقول: ليهدأ روعك يامحمد أدن أدن.

وذكر البزار عن علي — ماهو أوضح في سماع النبي،صلى الله عليه وسلم،لكلام ربه، فذكر فيه.. «فقال الملك: الله أكبر.. الله أكبر — وهو الأذان — فسمع محمد من وراء الحجاب صدق عبدي، أنا أكبر، أنا أكبر، وقال في سائر كلمات الأذان مثل ذلك.

ويرد القاضي عياض على المحتجين بقوله

(١) الشفا ١٩١/١.

(١) الشفا ٢٠٤/١.

تعالى: (وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحيا أو من وراء حجاب، أو يرسل رسولا فيوحي باذنه مايشاء) فيقول: ان كلام الله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم، ومن اختصه من انبيائه جائز غير ممتنع عقلا، ولا ورد في الشرع قاطع يمنعه، فان صح في ذلك خبر — اعتمد عليه. وكلام الله لموسى كائن حق مقطوع به، نص على ذلك في الكتاب، وأكده المصدر دلالة على الحقيقة، ورفع مكانه على ماورد في الحديث — في السماء السابعة — بسبب كلامه، ورفع محمد فوق هذا كله، حتى بلغ مستوى وسمع صريف الأقلام، فكيف يستحيل في حق هذا، أو يبعد سماع الكلام، فسبحان من خص من شاء بما شاء، وجعل بعضهم فوق بعض درجات. هل رأى الرسول ربّه؟

أما رؤيته،صلى الله عليه وسلم،لربه جلّ شأنه، فاختلف السلف فيها.. قال ابن عباس رضي الله عنهما — انه رآه بعينه.

وذكر ابن اسحاق أن ابن عمر أرسل الى ابن عباس رضي الله عنهما يسأله: هل رأى محمد ربّه، فقال: نعم.

والأشهر عنه أنه رأى ربه بعينه، روى ذلك عنه من طرق، وقال: ان الله تعالى اختص موسى بالكلام، وابراهيم بالخلة ومحمدا بالرؤية، وحجته قوله تعالى: «**ما كذب الفؤاد ما رأى أفتمارونه على ما يرى، ولقد رآه نزلة أخرى**».

وعن أبي ذر،رضي الله عنه ، في تفسير الآية ، قال: رأى النبي،صلى الله عليه وسلم، ربه. وعن أحمد بن حنبل ، أنه قال: أنا أقول بحديث ابن عباس: بعينه رآه رآه. وحكى بعض المتكلمين هذا المذهب عن ابن مسعود.

وقد أنكر الرؤية عائشة رضي الله عنها، فقالت حين سئلت: هل رأى محمد ربه؟ قالت: ثلاث من حدثك بهن فقد كذب من حدثك أن محمدا رأى ربه فقد كذب، ثم قرأت: «**لا تدركه الأبصار**» الآية.

وقال أبو هريرة: انما رأى جبريل، وقال بانكار هذا وامتناع رؤيته في الدنيا جماعة من المحدثين والفقهاء والمتكلمين.

قال القاضي عياض (١): «والحق الذى لا امتراء فيه، أن رؤيته تعالى في الدنيا جائزة عقلا، وليس في العقل مايحيلها، والدليل على جوازها في الدنيا: سؤال موسى،عليه السلام لها، ومحال أن يجهل نبي مايجوز على الله وما لا يجوز عليه، بل لم يسأل الا جائزا غير مستحيل، ولكن وقوعه ومشاهدته من الغيب الذي لا يعلمه الا من علمه الله، فقال الله تعالى: (**لن تراني**) أي لن تطيق ولا تحتمل رؤيتي، ثم ضرب له مثلا مما هو أقوى من نبيه موسى، وأثبت وهو (الجبل). وكان هذا ليس فيه مايحيل رؤيته في الدنيا، بل فيه جوازها على الجملة، وليس في الشرع دليل قاطع على استحالتها ولا امتناعها اذ كل موجود فرؤيته جائزة غير مستحيلة، ولا حجة لمن استدل على منعها بقوله «**لا تدركه الأبصار**» لاختلاف التأويلات في الآية..

وقد استدل بعض العلماء — بهذه الآية نفسها — على جواز الرؤية وعدم استحالتها على الجملة. وقد قيل: لا تدركه أبصار الكفار، وقيل: (لا تدركه الأبصار) أي لا تحيط به، وقيل (لا تدركه الابصار) وانما يدركه المبصرون. وكل هذه التفسيرات لا تقتضي منع الرؤية ولا استحالتها.

وكذلك لا حجة لهم بقوله تعالى: «**لن تراني**» وقوله «**تبت اليك**» ، لأن من قال معناها: لن تراني في الدنيا، انما هو تأويل وأيضا فليس فيه نص الامتناع، وانما جاءت في حق موسى.

ويضيف القاضي عياض رأيا لبعض السلف والمتأخرين، يقولون فيه — مامعناه— ان رؤية الله سبحانه في الدنيا ممتنعة لضعف تركيب أهل الدنيا وقواهم وكونها متغيرة، عرضا للآفات والفناء، فلم تكن لهم قوة على الرؤية، فاذا كان في الآخرة وركبوا تركيبا آخر، ورزقوا قوى ثابتة باقية، وأتم أنوار أبصارهم وقلوبهم قووا بها على الرؤية.

قال القاضي: وقد رأيت نحو هذا لمالك بن أنس قال: «لم يُرَ الله في الدنيا لأنه باق، ولا يرى الباقي بالفاني، فاذا كان في الآخرة ورزقوا أبصارا باقية، رئي الباقي بالباقي، وهذا كلام حسن مليح، وليس فيه دليل على الاستحالة الا من حيث ضعف القدرة .. فاذا قوّى الله تعالى من شاء من عباده وأقدره على حمل أعباء الرؤية لم تمتنع في حقه. وقد أفاضت الكتب فيما ذكر عن قوة بصر موسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم، ونفوذ ادراكهما بقوة الهية منحاها لادراك ما أدركاه، ورؤية مارأياه.

بقي أن نقول .. ان ذكرى الاسراء والمعراج للرسول الكريم، ماجاءت لتكون حلّة أو شارة أو تجارة تروج في موسم أو مناسبة ثم تركد وتكسد في بقية الأوقات والمناسبات، بل ان هذه الذكرى وغيرها من الذكريات الجليلة التي تتصل بالرسول،صلى الله عليه وسلم،تجييء لتحيي الرفات، وتبعث الأموات، وتحرك القلوب، وتهز الجنوب، تجييء لتكون مصدر الحرارة الدائمة، ومنبع القوة الدائبة، فلا تكف عن الدفع الى الأمام، ولا عن الهاب الخواطر والافهام، ولا عن تشغيل السواعد والاقدام في سبيل الله، سبيل الحق والخير وفي سبيل دعوة العدل والبر.

ويكفينا أن ندرك ونعي المغزى العميق لهذا الحدث، ونفهم روحانيته السامية، وما ينطوي عليه من توجيهات لاينبغي أن يمر عليها الناس مّر الكرام. من هذه التوجيهات:

* أن الرسول،صلى الله عليه وسلم،كان خاتمة سلسلة من الأنوار التي يرسلها الله الى العالم بين الفينة والفينة لتهدي الى الرشاد، ولتقود الى الله، ولتسموا بالمؤمنين درجات في معارج القدس، لتصل بالجديرين منهم الى الكمال المرجو، عن طريق الارشاد الالهي، وكان الكتاب الذي أنزل عليه صلوات الله وسلامه عليه— وهو القرآن، خاتم الكتب وأكملها ومهيمنا عليها.

ولأن الرسول صلى الله عليه وسلم— تخلق بأخلاق أكمل كتاب رباني، فهو اذن أكمل رسول، من هنا كانت امامته بالرسل والأنبياء في بيت المقدس. ولأنه — عليه الصلاة والسلام— أكمل رسول كان من أجل ذلك أقرب المقربين الى الله سبحانه وتعالى. لقد تخطى الأرضين والسموات وتجاوز الكون

(١) الشفا ١/١٩٧.

أضواء على الاسراء والمعراج

كله، ووصل الى مالم يصل اليه بشر، بل الى مالم يصل اليه جبريل نفسه.

* ان المعنى الذي يدل عليه نبأ المعراج من وجود الأنبياء والرسل في السموات، ومن أن الرسول أخذ بتجاوز هذه السموات واحدة بعد الأخرى، ويتجاوز الأنبياء واحدا بعد الآخر، نقول — كما أن المعنى الذي يدل عليه النبأ معنى مكاني، فانه أيضا — بل وبطريق أولي — معنى روحي، أي أن الرسول صلى الله عليه وسلم في تساميه الروحي في كل لحظة من اللحظات، قد بلغ في معراجه الى درجات تجاوزت في روحانيتها — آدم في سمائه الأولى، ثم تجاوزت يحيي وعيسي عليهما السلام في سمائها الثانية، ثم تجاوزت يوسف في سمائه الثالثة .. وهكذا حتى تجاوزت روحيا ابراهيم عليه السلام،في سمائه السابعة، ولقد تجاوز كل ذلك، وتجاوز الكون كله الى سدرة المنتهى الى شجرة النهاية، الى حيث لايبلغ مَلَك مقرب، ولا نبي مرسل.

* أضف الى ذلك — تلك اللمحات الربانية، والرمزيات الأخلاقية التي تربط ربطا محكما بين الدين والأخلاق، والتي وضعها الحق لتكون علامات على الطريق الذي سلكه المصطفى،صلى الله عليه وسلم، ولتكون تذكرة وعبرة. فان مقياس الأخلاق في الاسلام، انما هو المبادىء الدينية، وانما هو الفضائل التي أوحاها الله سبحانه وتعالى. هذه الفضائل التي حددها القرآن في أسلوب عربي مبين، وتحدث عنها حدث الاسراء والمعراج في صورة رمزية دالة هادفة مؤثرة، وبينتها السنة المطهرة.

سار الرسول، صلى الله عليه وسلم،في مسراه، فمر على قوم يزرعون ويحصدون في يوم، كلما حصدوا عاد كما كان.. فقال صلى الله عليه وسلم،لجبريل: ماهذا ؟ قال: هؤلاء هم المجاهدون في سبيل الله، تضاعف لهم الحسنة الى سبعمائة ضعف، وما أنفقوا من شيء فهو يخلفه، وهو خير الرازقين.

ثم أتى على قوم ترضخ رؤوسهم بالصخر، كلما رضخت عادت كما كانت، لايفتر عنهم من ذلك شيء. فقال: ماهذا ياجبريل؟ قال: هؤلاء هم الذين تتثاقل رؤوسهم عن الصلاة المكتوبة.

ثم أتى على قوم على أقبالهم رقاع، وعلى أدبارهم رقاع، يسرحون كما تسرح الأنعام، يأكلون الضريع والزقوم، ورضف جهنم. فقال ما هؤلاء ؟ قال: هؤلاء هم الذين لا يؤدون زكاة أموالهم وماظلمهم الله، وماربك بظلام للعبيد.

ثم أتى على قوم بين أيديهم: لحم نضيج طيب في قدر طيب، ولحم خبيث نيء في قدر خبيث، فجعلوا يأكلون من الخبيث النيء ويدعون النضيج الطيب. قال: ماهؤلاء يا جبريل؟ قال: هذا مثل الرجل من أمتك، تكون عنده المرأة الحلال الطيب، فيأتي امرأة خبيثة فيبيت عندها حتى يصبح، ومثل المرأة: تقوم من عند زوجها حلالا طيبا فتأتي رجلا خبيثا فتبيت عنده حتى تصبح.

ثم أتى على قوم تقرض ألسنتهم وشفاههم بمقاريض من حديد، كلما قرضت عادت كما كانت، لا يفتر عنهم من ذلك شيء. قال: ماهذا ياجبريل؟ قال: هؤلاء خطباء الفتنة.

ثم أتى على حجر صغير، يخرج منه ثور عظيم، فجعل الثور يريد أن يرجع من حيث خرج فلا يستطيع. فقال: ماهذا ياجبريل؟ قال: هذا مثل الرجل يتكلم بالكلمة العظيمة ثم يندم عليها فلا يستطيع أن يردها.

ثم أتى على واد فوجد فيه ريحا طيبة باردة كريح المسك وسمع صوتا. فقال: ما هذا ياجبريل؟. قال: هذا صوت الجنة تقول: رب آتني ماوعدتني، فقد كثرت غرفي واستبرقي، وحريرى، وسندسي، وعبقري ولؤلؤي ومرجاني، وفضي، وذهبي، وأكوابي وصحافي، وأباريقي،ومراكبي، وعسلي،ومائي، ولبني وخمري، فآتني ماوعدتني. قال: لك كل مسلم ومسلمة، ومؤمن ومؤمنة، ومن آمن بي وبرسلي، وعمل صالحا، ولم يشرك بي شيئا، ولم يتخذ من دوني أندادا، ومن خشيني فهو آمن، ومن سألني فقد أعطيته، ومن أقرضني جازيته، ومن توكل عليّ كفيته، انني أنا الله لا اله الا أنا، لا أخلف الميعاد، قد أفلح المؤمنون، وتبارك الله أحسن الخالقين. قالت الجنة: قد رضيت.

ثم أتى على واد فسمع صوتا منكرا ووجد ريحا منتنة، فقال: ماهذا ياجبريل؟ قال: هذا صوت جهنم تقول: رب آتني ماوعدتني، فقد كثرت سلاسلي وأغلالي، وسعيري وحميمي، وضريعي وغساقي وعذابي، وقد بَعُد قعري، واشتد حرّي، فآتني ما وعدتني. قال: لك كل مشرك ومشركة، وكافر وكافرة، وكل جبار لا يؤمن بيوم الحساب. قالت: قد رضيت.

ما أروع هذا التصوير التأديبي الاخاذ، الذي يعرض لنا جهات الشر في أقبح الصور وأنكر الأشكال، ويعرض لنا جهات الخير في أروع صوره وأجمل أشكاله، وهي جميعا تبدو أمام الرسول،صلى الله عليه وسلم، في مظاهر رمزية، ولوحات معبرة آسرة، فتثير غضب الانسان واشمئزازه، تجعله يفر من قبح الشر وخساسته الى جمال الخير ورفعته.

أما ثمرة الاسراء والمعراج .. وأما هدية الاسراء والمعراج، وأما النعمة العظمى في الاسراء والمعراج، فهي الصلاة ولا يتأتى لنا— عجزا وقصورا — أن نتحدث عن الحمد وعن الشكر على هذه النعمة التي أنعم الله بها على الأمة الاسلامية في هذه الليلة المباركة. فالصلاة هي الصلة به سبحانه، وهي الكيفية، وهي الطريقة وهي الوسيلة، وهي اللحظات الجليلة التي تتم فيها الصلة وتتحقق.

انها فترة مناجاة، فترة انقطاع كامل، عن عالم المادة، وعن عالم الشهوات، لتخلص النفس الى المنعم، حتى تنعم في رحابه — خمس مرات في اليوم — بسعادة الصلة به، والقرب منه.

ومن أقام الصلاة فقد أقام الدين، ومن هدمها فقد هدم الدين، ان اقامة الصلاة أو اقامة الدين، انما هي اقامة الصلة بالله، وتحقيق ذلك، هو المثل الأعلى، والغاية العظمى، والسعادة التي يجري وراءها المؤمنون ليحققوا بها معراجهم نحو الله تعالى□

رغم الليل

شعر : عبدالله نجم المنصور / البصرة
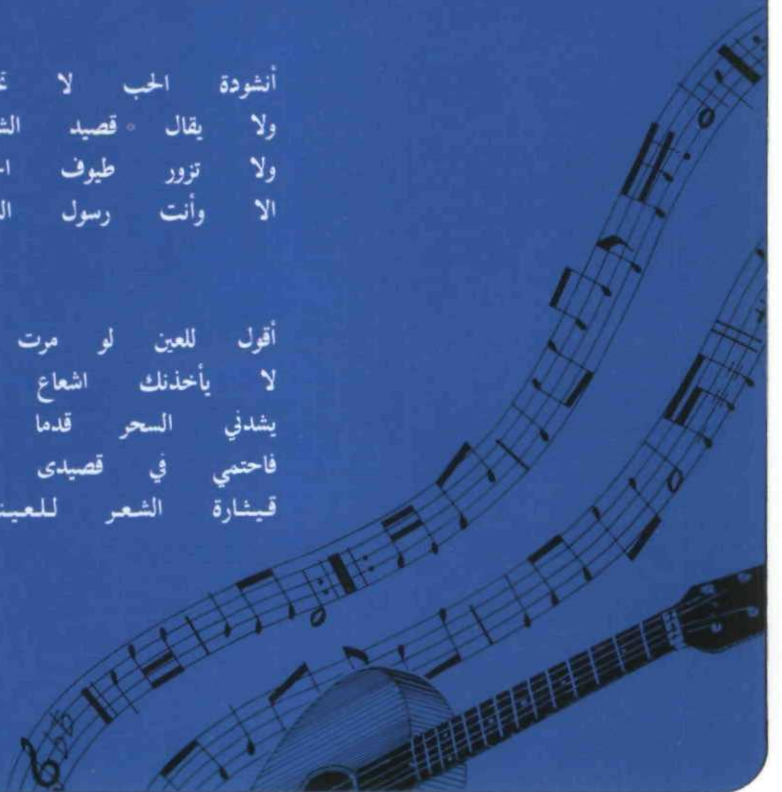


اني سأكتب رغم الليل أشعاري ... ياطلعة الفجر في اشراق آذار
ليلاي يافتنة الدنيا اذا ابتسمت ... ويا وضوح السنا من بعد اعصار
كـأن وجـهك والاشراق يملؤه ... بهاؤه مـن ريـاحين وأزهـار
كون من النور ما لاحت طلائعه ... الا ولاح لعيني فيض أقمار..

ذى جنة الأرض من عينيك مبدؤها ... والمنتهى عندها في ليلها السارى
تسير بي لست أدرى أين مقصدها ... ويبتدى سيرها في كشف اسرارى
لـيعزف الشعر ألحانا مكشفة ... اذ أنت باعثة أوتار قيثارى
أصوغها من جنون الوجد أغنية ... اصداؤها رجع أوهامي وأفكارى

مساحة الفكر من بالذكر يشغلها ... الآك في كل حين في هوىً نارى
يشـدني كـلما حـاولت أبـعده ... أدير عنه شراعي أرفع الصارى
فتستعيد له ريح على رغم ... تبقي تعنفه في عمق ابحار

أنشودة الحب لا تحلو قراءتها ... الا لعينيك في ليل وابكار
ولا يقال ◦ قصيد الشعر، أعذبه ... الا لخديك يانبع السنا الجارى
ولا تزور طيوف الحب طائرة ... على جناح خيال دون اخطار
الا وأنت رسول الشوق قائده ... ومستراح تـعيب ضاق بالنار

أقول للعين لو مرت بها عرضا ... بشائر النور ياعين اصمتي دارى
لا يأخذنك اشعاع ولا هيف ... الى بحار الهوى من دون بحّار
يشدني السحر قدما حين ألمحه ... ويستفز شعورى بل واشعاري
فاحتمي في قصيدى شاكيا ألمي ... أبـثـه لوعتي همي واضراري
قيثارة الشعر للعينين أوقفها ... مازلتِ أغنيتي مازلتِ قيثاري



صُوَرٌ من التقنيّة العربيّة عَبرَ العصُور

سليمان نصر الله / هيئة التحرير



ليس هذا المقال سوى محاولة ترمي إلى تبيان دور العرب في مجال التقنية عبر التّاريخ، ومدى ما أسدوه من خدمات جليلة أغنت حضارات الشرق والغرب. وهنا نستعرض بعض الصّور التي تعكس التقدم العلمي والتقني الذي أحرزه العرب عبر العصور، على يد فئة من الأعلام الأفذاذ، الذين نبغوا في ميادين الهندسة المعماريّة، والطب، والصّيدلة، والفلك، والرياضيّات، والكيمياء، والصّناعة، والفنون. كما نستعرض الجهود العربية المبذولة حاليًا في مجال التنمية لمواكبة النهضة التكنولوجيّة المعاصرة.

الاسلام مفتاح الابداع الحضاري

من السمات المميزة لعصرنا، الذى نعيش فيه اليوم، التقدم الهائل والتغير السريع في مجال العلم والتكنولوجيا.

لقد اصبح موضوع التقنية وامتلاكها من أهم قضايا التنمية الحضارية الشاملة، التي تشغل بال الدول النامية والدول الصناعية على حد سواء. فالانجازات العلمية والتقنية الهائلة التي تم التوصل اليها في مجالات عديدة في الخمسين سنة الماضية كالفضاء، والعقول الالكترونية، تضع الانسان العربي أمام تحديات كبيرة، تملي عليه مواصلة الجهد والتخطيط السليم، وحشد الطاقات الفكرية، التي تمكنه من اللحاق بركب التقدم التقني المعاصر والمشاركة الفعلية فيه. وليس هذا الأمر بعزيز

على أمة حملت مشعل الحضارة والمدنية ردحا طويلا من الزمن، حضارة قوامها العلوم والآداب والفنون، التي كان لها فضل كبير على التراث الانساني. فالدولة العربية الاسلامية ارتقت بالعلوم الى مستوى من الرفعة والسمو لم تبلغه قط دولة أخرى قبلها، فوضعت بذلك الأسس القوية التي تنامى فوقها صرح العلم الحديث. والعلم العربي الاسلامي رحب الأبعاد، متشعب المسالك، وفرت له الدولة الاسلامية في أوج حيويتها وانطلاقها كل أسباب النجاح. وظل بعدها زهاء ستة قرون لم يخفت سراجه في ظل العقيدة الاسلامية، يمتد فوق رقعة جغرافية مترامية الأطراف من الأندلس غربا الى حدود الصين شرقا. وكانت اللغة العربية هى البيئة التي ترعرع في اطارها العلم ونضج، رغم اختلاف الأقاليم التي كان ينتمي اليها العلماء في تلك العصور الزاهية. وفي هذا الصدد يتحدث الفيلسوف الأمريكي «جون ستوتهف بادو» عن دور العرب والعقيدة الاسلامية واللغة العربية في نمو الثقافة الاسلامية والتقدم العلمي قائلا: «في نسيج الثقافة الاسلامية المتعدد الألوان خيوط كثيرة حاكها العرب، فأسماء الأفذاذ منهم وروائع آثارهم تتردد في كل الحقول، من الأدب وعلم الكلام والفلسفة الى العلوم والجغرافيا والهندسة المعمارية والصناعة. والنصيب العربي من تكوين هذه الثقافة أوسع كثيرا من حدود أدوار العلماء والأدباء فرادى. والفتوحات العربية، على نقيض غيرها من الفتوحات، حملت معها الى الأقاليم المفتوحة قوى بناءة من ابداعهم، قوى هيأت الساحة لحضارة اسلامية رفيعة المستوى. في اطار الامبراطورية الاسلامية الجديدة رأينا ثقافات العالم القديم ومجتمعاته، على تنوعها، تتحرر من سماتها المحلية المنغلقة على ذاتها، وتقسر على تفاعل غني بالثمار لم تعرفه من قبل. ورأينا الفاتحين العرب أنفسهم، بمجرد ان استقرت مرحلة الاستيعاب التي أعقبت الفتح، يستجيبون سريعا للحضارات التي هزموها، فيجلسون في احترام التلاميذ، طلبا للعلم، بين أيدى الأقوام التي دانت لهم، وماكان أقدرهم من تلاميذ على اكتساب العلم !».

واذا كان هذا التفاعل قد أسفر عن حضارة مثيرة للاعجاب، فذة الشخصية، فمعظم الفضل في ذلك يعود الى القوة التي استثمر العرب طاقاتها في فتوحاتهم، الا وهي العقيدة الاسلامية.

اللغة العربية أداة التقنية والعلوم

ان دور اللغة العربية في الثقافة الاسلامية والعالمية جلي واضح. فحقيقة وجود اللغة العربية في صميم نشوء الثقافة الاسلامية وتصورها، تتجلى لنا حين نتحدث عن الهيكل المادي والمعنوي الذى كان ثمرة تطور نطلق عليه «الحضارة العربية والفكر العربي». وعلى الرغم من أن كثيرا من المنجزات الثقافية الكبرى لم تولد في ظل الرعاية العربية، فان بعض هذه المنجزات الهامة كان من صنيع غير العرب، بل وغير المسلمين، ولكنهم صنعوه باللغة العربية، أيا كان منبتهم العرقي. ورب امرئ يستغرب أن تكون لغة العرب الفاتحين قد سمت الى هذه المنزلة الرفيعة، رغم انتشار بعض اللغات القديمة انتشارا واسعا في حوض البحر الأبيض المتوسط كاليونانية. بيد أن اللغة العربية، لغة القرآن الكريم، لم تلبث أن تغلبت على غيرها من اللغات، وسرعان ما أصبحت اللغة السائدة في الثقافة والبحث العلمي في العالم الاسلامي. فهي تتسم بطاقة ضخمة كأداة للتخاطب المصقول، والتعبير عن الأفكار المعقدة، يعزى ذلك الى التوليد، والاشتقاق، والنحت، التي تمتاز بها اللغة العربية، فضلا عن أنها لغة الايجاز والجرس الموسيقي العذب، فارتقت لتغدو أداة رائعة للتفكير والبحث العلمي، وأصبحت أداة التفاهم الوحيدة، التي جعلت شتى الأقوام، المتمازجة في ظل السلطان السياسي الواحد، تتحد في ثقافة مشتركة.

وحول موضوع دور اللغة العربية في العلوم والتقنية الحديثة، يقول الدكتور بكر عبد الله بن بكر، مدير جامعة البترول والمعادن: في عصر ازدهار الحضارة الاسلامية في الأندلس، كان هناك تقدم علمي يكتب وينشر باللغة العربية. وكان الطلاب الأوروبيون، وخاصة من روما وشمال اسبانيا وبعض المقاطعات الفرنسية، يؤمون المراكز العلمية العربية للدراسة باللغة العربية. ولدي في مكتبتي مصدر يتضمن رأى أحد رجال الكنيسة في ذلك العصر يقول فيه: ان طلابنا يذهبون لدراسة العلوم الحديثة في بلاد الأندلس المسلمة، ثم يعودون ليقولوا انه لا يمكن كتابة العلوم الحديثة الا باللغة العربية. ويعلق رجل الكنيسة على ذلك الوضع

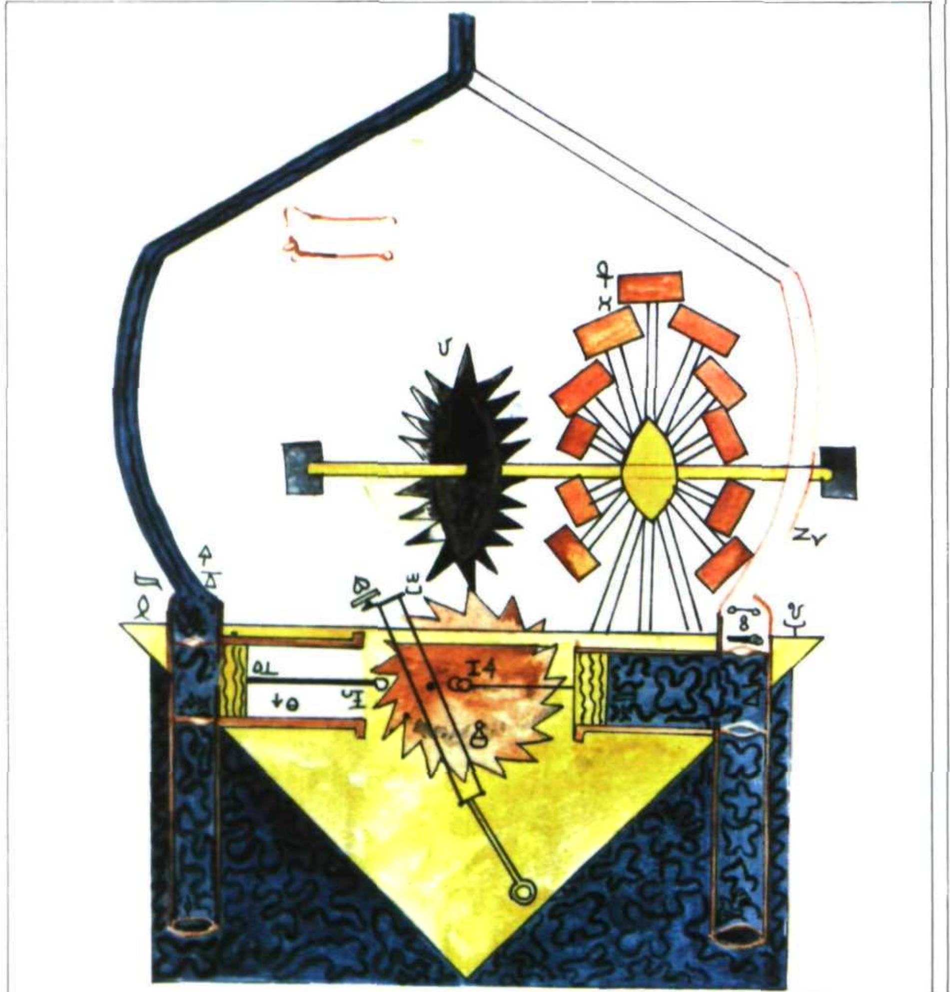


بقوله: ان هذا أمر خطير تجب محاربته، وعلينا أن نحاول جاهدين للاقتباس والترجمة ثم التعليم بلغتنا. وعليه فان من يقول ان اللغة العربية عاجزة عن استيعاب التقنية الحديثة، رغم اتساعها، هو قول مرفوض من أساسه. فاذا كانت هناك علة تحول دون ذلك، فأقول ان العلة فينا نحن العرب، أو كما قيل: نعيب زماننا والعيب فينا. ان مصادر التقنية في العالم اليوم تكتب وتؤلف بلغات غير العربية، تماما كما كانت اللغة العربية بالنسبة لأوروبا في العصور الوسطى، حينما كانت العلوم العربية الاسلامية في أوج ازدهارها. وفي رأيي انه اذا توخينا الاسراع في استخدام اللغة العربية، فالتركيز يجب ألا يقتصر على الترجمة، كما يقول البعض ويتردد هذه الأيام، بل يجب التركيز على اعداد الأساتذة والعلماء أولا، وانشاء مناخ صناعي وتقني في الوطن العربي ثانيا، لا على مجرد محاولة وضع ألفاظ عربية لمصطلحات علمية وتقنية قد يساء في كثير من الأحيان تفسيرها أو فهمها.

ماهية التقنية أو التكنولوجيا

قد يتساءل الانسان العربي المعاصر عن ماهية التقنية ومدلولها. ولكي نستعرض صورا متنوعة للتقنية العربية عبر فترات مختلفة من تاريخ الأمة العربية الطويل، يجدر بنا أن نقف على أبعاد ما تعنيه كلمة التقنية، وما تنطوي عليه من نشاط يتصل اتصالا وثيقا بالانسان، من حيث الأساليب الحياتية المتشعبة. ان كلمة التقنية أو التكنولوجيا ليست عربية، ولكنها شقت طريقها الى اللغة العربية.

ان كلمة «تكنولوجيا — Technology » اليونانية الأصل تتألف من مقطعين أحدهما « Techno » وأصلها اليوناني « Technicos » وتعني المهارة الفنية والحرفية، والآخر « Logy » ويعني التعبير أو اللغة بوجه عام، وعليه فان المصطلح بمدلوله الواسع يعني اللغة الفنية، هذا من الناحية اللغوية، أما من الناحية العلمية الحديثة فيعني التطبيق الفني المبني على أسس علمية، أو بمعنى آخر، كما يعرّفه «وبستر — Webster » في معجمه، هي الطرق الفنية لتحقيق غرض معين، أي مجمل الوسائل الفنية المستخدمة لتوفير كل ما هو ضروري لمعيشة الناس ورفاهيتهم. من ذلك يمكن القول ان التكنولوجيا ليست علما نظريا بحتا وانما هي علم تطبيقي، فهي من هذا القبيل أمّ العلم ووليده ان صح التعبير. فالانسان منذ وجد على وجه البسيطة وهو يُعْمِل فكره وخياله لابتكار مايعينه على البقاء، ويوفر سبلا حياتية سهلة يسيرة، فاكتشف الانسان القديم النار، واخترع الكتابة، وصنع الأدوات البدائية من الحجارة ومواد البيئة حوله للاستفادة منها في الزراعة والدفاع عن نفسه، وطهو طعامه، وبناء مسكنه، وحياكة ملابسه، وما الى ذلك من مستلزمات حياتية قتضاها وجوده. ومع الزمن تطورت وسائل الحياة بتطور الانسان، وازدادت معرفته، واتسعت خبراته وتجاربه، وتبعا لذلك كثرت مبتكراته وتعددت اختراعاته في مجالات الصناعة، والنقل، والمواصلات، والعمران، والطب، والتعليم، والفضاء، وغير ذلك، حيث بلغت التقنية المعاصرة شأوا بعيدا يتمثل حاليا بالالكترونيات والكمبيوتر.





صور من التكنولوجيا العربية

انطلاقا من التعريف الآنف الذكر بالتكنولوجيا، نستعرض بعض جوانب التقنية العربية في أزمان متفاوتة وأمصار مختلفة. في العصور السابقة للاسلام انصبت التقنية العربية على الزراعة والعمارة بشكل خاص. فالزراعة كانت ولاتزال عماد الحياة في الوطن العربي منذ فجر التاريخ. وقد كان لاكتشاف المعادن، وخاصة النحاس في منطقة الشرق الأوسط في العهود السحيقة، عاملا مساعدا على تصميم وصنع الأدوات اللازمة للزراعة والبناء. فانتقل الانسان من طور الأدوات الحجرية الى طور الأدوات المعدنية، فصنع الفأس، والازميل، والمثقب، والسيف، والمنجل، والمحراث، وغير ذلك من أدوات دعت الحاجة الى ابتكارها. في جنوب وشمال الجزيرة العربية، حيث يطيب المناخ وتغزر الأمطار، استقر العربي، وتعاطى الأعمال الزراعية، وتفنن في طرق الري. ولعل سد مأرب الذي أنشئ في اليمن لحصر المياه وتوزيعها على الأراضي الزراعية، هو أصدق دليل على ما وصلت اليه التقنية الزراعية آنذاك. ويعتبر سد مأرب أقدم سد من نوعه في التاريخ، فهو من روائع الهندسة المائية. أما من الناحية العمرانية، فان آثار المدن وأطلال القصور، وبقايا القلاع والحصون، ...ل على مدى ما أحرزه العرب القدماء من ...ة متقدمة بمقاييس ذلك العصر. فمدينة البتراء الكائنة في الأردن، عاصمة الأنباط، قدّت في الصخر الصلد، وازدانت بالقصور والهياكل والأديرة. أما مدينة تدمر، القائمة في وسط بادية الشام، فتدل آثارها على أنها كانت غاية في الأبهة والجمال، حيث جلبت الصخور الغرانيتية اليها من صعيد مصر. وقد شيدت المباني على جانبي الشارع الرئيسي المزدان بنحو ٧٥٠ عمودا كورنثيا من الحجر الكلسي الأبيض والوردي، ارتفاع الواحد منها نحو ١٨ مترا. كما أقيم عند أول الشارع قوس نصر فخم، وحفرت تحت الشوارع مجارير للمياه. هذا كان في شمال الجزيرة العربية، أما في الجنوب، الذي أطلق عليه «بلاد القصور» فقد اهتم أهله ببناء القصور الحصينة الشامخة. ويعتبر قصر غمدان أعظم تلك القصور فقد أسهب المؤرخون القدامى في وصفه، اذ كان للقصر المؤلف من عشرين طبقة، أربعة أوجه، منها وجه مبني بحجارة بيض، وآخر بحجارة سود، وثالث بحجارة حمر، وفي كل ركن من أركان القصر أقيم مجسّم لأسد من نحاس فاتح فاه باتجاه الريح، فاذا عصفت تردد صداها في التمثال وبدا وكأنه زئير. من هذه المنجزات العمرانية والزراعية يستدل على أن العرب القدماء قد بلغوا شأوا بعيدا في كثير من العلوم التي ارتبطت بها نشاطاتهم، ويمكن القول انهم ألمّوا بالرياضيات، والهندسة، والجغرافيا، والفلك، والطب.



مهندسان سعوديان يتفحصان عينة صخرية من باطن الأرض باستخدام تكنولوجيا البحث عن مكامن الزيت المتطورة.

ومع ظهور الاسلام وانتشاره السريع واتساع رقعته الجغرافية، قفزت التقنية العربية الاسلامية قفزات هائلة في مجالات عديدة، وخاصة في العصر العباسي الذي يعتبر العصر الذهبي للتقنية العربية. ففي ذلك العصر وصلت العلوم الى مراحل متقدمة، بفضل فئة من العلماء الأفذاذ ظهروا في أرجاء العالم الاسلامي أمثال ابن سينا، والرازي، والخوارزمي، والزهراوي، والجزري، والكندي، والبيروني، وابن الهيثم، وجابر بن حيان، وكثيرون غيرهم. وقد ترجم الفنيون والمهندسون المسلمون هذا التقدم العلمي الى واقع عملي، انعكست آثاره جلية على مناحي الحياة وأساليبها. فما أن بسط العرب نفوذهم على المناطق الخصبة حتى بادروا الى الاهتمام بشؤونها وتحسين أوضاعها الزراعية، فبنوا السدود، وشقوا القنوات، وأقاموا الجسور والقناطر على الأنهار. وأصدق شاهد على ذلك، الآثار الباقية لبرك زبيدة وشبكة القنوات القائمة على طريق الحج من بغداد الى مكة المكرمة. وقام العلماء والخبراء الزراعيون بدراسة أنواع التربة واختيار أفضل المزروعات لها للحصول على أفضل انتاج لها، وشجعوا على استخدام الأسمدة العضوية. كما عرفوا التلقيح والتطعيم، وأدخلوا زراعات جديدة الى بلادهم أهمها القطن والبرتقال. وبفضل التقنية الزراعية ازدهرت الزراعة في مختلف أرجاء الدولة الاسلامية ووفرت للدولة الكثير من المواد الأولية الصالحة للتصنيع كقصب السكر والقطن والكتان والازهار والفاكهة والحبوب. كما حوت الأرض الكثير من المعادن كالحديد والنحاس والذهب والفضة.

وبفضل المواد الأولية هذه، قامت في أنحاء الدولة الاسلامية صناعات مختلفة أدت الى ازدهار الصناعة ازدهارا كبيرا، فاشتهرت المنسوجات الشامية والمصرية بجمالها الفني الرائع، وذاع صيت الموصل بنسيجها القطني الرفيع المسمى «موصلين»، كما امتازت دمشق بنسيج التيل المعروف بالدمقس، وعدن بالصوف، واشتهرت دمشق كذلك بالسيوف المصنوعة من الصلب الدمشقي، وصيدا وصور وبغداد بالزجاج الذي لا يدانى برقته وصفائه وزخرفه. واشتهرت مدينة الرقة بالزيت والصابون، والمدن الفارسية والعراقية بصناعة العطور، والاسكندرية بنسيج الكتان، وسمرقند

بصناعة الورق، واليمن بالمربيات. وأما مدينة حران فقد انفردت بصناعة الآلات الرياضية كالموازين والمقاييس والاسطرلاب والساعات المائية. وبرواج التجارة برع العرب في صناعة السفن على اختلاف أنواعها، فجابوا البحار والمحيطات، ووصلوا الى الفلبين والصين والسواحل الافريقية والسواحل الأوروبية. وفي الشمال ارتادوا بلاد الروس ووصلوا الى فنلندا.

هذا وبرزت ملامح فن العمارة العربية الاسلامية في بناء المساكن والقصور والمساجد وتميزت في تشييد المدائن والعواصم مثل بغداد، والقاهرة، وقرطبة، وغرناطة. وتحمل الآثار العمرانية الاسلامية الباقية طابعا مميزا تتجلى فيه دقة الصنعة وجمال الزخرفة والتقنيات الرفيعة المستوى المستخدمة في جميع أوجه البناء. واذا تجاوزنا التقنية العربية في مجال العمارة والهندسة الى العلوم الدقيقة نجد أن العلماء المسلمين قد برعوا في الفلك والفيزياء والكيمياء والصيدلة، ولهم فيها انجازات علمية وتقنية رائعة.

أما في الطب فقد بلغ العرب شأوا بعيدا وخاصة في الجراحة والتشريح وعلم وظائف الأعضاء. وقد استحدث الأطباء العرب المسلمون أساليب فنية متنوعة في اجراء العمليات، كما ابتكروا أدوات طبية عديدة، وركّبوا الكثير من الأدوية من مستحضرات نباتية ومعدنية مختلفة. ففي كتاب «التصريف» لأبي القاسم الزهراوي، الذى يعتبر أبرز الجراحين المسلمين في العصور الوسطى، وصف للأدوات الجراحية والطبية التي ابتكرها واستخدمها في العمليات الجراحية، وقد ترجم هذا الكتاب الفريد الى اللاتينية تأكيدا لمكانة الزهراوي المرموقة في الأوساط الطبية طوال العصور الوسطى وحتى عصر النهضة.

وفي مجال التكنولوجيا الميكانيكية أو ما كان يسمى بالحيل الهندسية كان للعرب فيها سهم وافر في خدمة تقدم الحضارة. فقد ازدهرت الفنون الميكانيكية في العالم الاسلامي بين القرنين الثالث والسابع للهجرة، حيث ظهرت الآلات كالطواحين، ووسائل رفع الماء، وآلات الحرب، والأدوات التي يستخدمها الحرفيون كالحدادين والصاغة

١


٢


٣


والنجارين والخزافين والدهانين وغيرهم. هذا الى جانب الأدوات الموجهة لاثارة الاعجاب والمتعة الفنية في أوساط علية القوم كالآلات الموسيقية الذاتية الحركة، والفوارات والعوامات، والأباريق، والصمامات، والساعات المائية، وغير ذلك. وقد اشتهر ابن الرزاز الجزرى باختراع كثير من هذه الآلات والأدوات التي وصفها في كتابة «في معرفة الحيل الهندسية» ورسم أشكالها وأوضح تصاميمها. والجدير بالذكر أن هذا المخطوط القيم نشر مؤخرا في لندن في ترجمة انكليزية راقية وضعها «دونالد هيل»، فنال عليها جائزة «دكستر» لعام ١٩٧٤ من الجمعية الأمريكية لتاريخ التكنولوجيا.

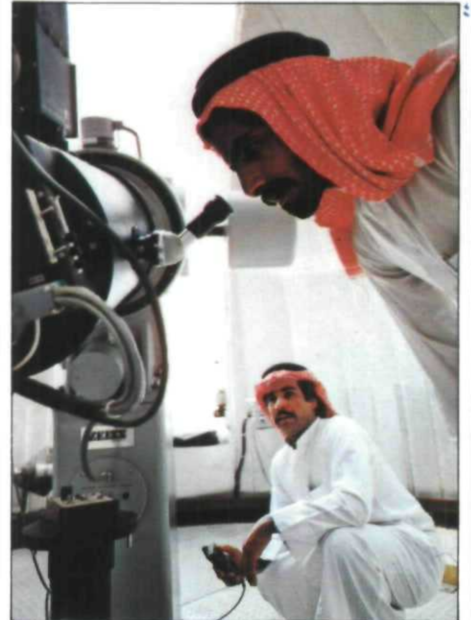
التنمية التكنولوجية في الوطن العربي

تلك الصور المتألقة لأوجه التقنية العربية في العصور الوسطى لم تلبث أن خبا نورها اثر الغزو المغولي، وتفتيت الدولة الاسلامية، اضف الى ذلك ماحل بالوطن العربي، بجناحيه الشرقي والغربي من نكبات وانتكاسات عقب الحربين العالميتين الأولى والثانية. واليوم وبعد أن ملكت الدول العربية زمام مقدراتها، راحت تسعى حثيثا للحاق بركب التقنية الحديثة في عصر الكمبيوتر والالكترونيات، ما وسعها الى ذلك سبيل، رغم العديد من العقبات. فقامت الحكومات بتأسيس الجامعات ومراكز الأبحاث وبناء الطاقات البشرية، وتكثيف التدريب المهني والفني، لبناء القاعدة التقنية والصناعية. ومن أمثلة الاسهام الفعلي لتذليل العقبات التكنولوجية ماقامت به حكومة المملكة العربية السعودية من انشاء مراكز أبحاث تعنى بتقنية الزيت، والغاز، والصناعة، والزراعة، والطب. وما مركز البحوث في جامعة البترول والمعادن بالظهران، والمركز الوطني للعلوم والتكنولوجيا بالرياض الا أمثلة حية لهذه النهضة التكنولوجية التي أخذت بوادرها تظهر للعيان. وقد تجلى اهتمام الدول العربية بموضوع التقنية الحديثة في ندوة «مشكلة التنمية التكنولوجية في الوطن العربي» التي عقدت مؤخرا في مدينة الدوحة، ونظمها اتحاد مراكز البحث العلمي العربية بالتعاون مع مركز البحوث العلمية والتطبيقية بجامعة قطر. وقد شارك في هذه الندوة ثلاثون باحثا ومتخصصا يمثلون اثنتي عشرة دولة عربية وجامعة الدول العربية وبعض المراكز والمؤسسات العالمية المعنية بمشكلات تنمية التكنولوجيا. ومن بين التوصيات التي تم اتخاذها، وضع استراتيجية عربية للبحث العلمي والتكنولوجي تكون منسجمة ومتفاعلة مع استراتيجية التنمية الاقتصادية والاجتماعية للعمل العربي المشترك، ومراجعة الأسس التي يقوم عليها نظام التعليم الحالي في الوطن العربي برمته، وتنمية القدرات الذاتية للمجتمع باعتبارها جوهر التنمية التكنولوجية، وتشكيل اللجان القطرية للعلم والتكنولوجيا وتوفير المناخ الملائم لها، وتشجيع انشاء الصناعات الصغيرة وخاصة المكملة للصناعات الأساسية، وتطوير المهارات العربية المنفذة للتكنولوجيا، والتعاون مع الدول النامية والصناعية في مجال التقنية.

هذه الجهود المبذولة حاليا في مجال التنمية التكنولوجية في الوطن العربي هي خير مايترجم آمال الأمة الاسلامية في الوقت الحاضر للحاق بركب التقدم التكنولوجي المعاصر □

مراجع البحث

١ــ «شمس العرب تسطع على الغرب» — زيجريد هونكه
٢ــ «عبقرية الحضارة العربية» — جواد علي
٣ــ «تاريخ العرب قبل الاسلام» — جواد علي
٤ــ «الحضارات» — لبيب عبد الساتر





١ ــ يستخدم العاملون في صناعة البترول أجهزة متطورة تعتبر حيوية في مجال تقنية الزيت والغاز في المملكة العربية السعودية.

٢ ــ تلعب عملية تخزين المعلومات في مراكز الكمبيوتر دورا بارزا في التقنية البترولية الحديثة.

٣ ــ جانب من المرصد الوطني في المملكة العربية السعودية حيث تجرى بحوث علمية فلكية.

٤ ــ رصد الأجرام الكونية من مجرات ونجوم وكواكب وسدم جزء من الأبحاث الفلكية التي يضطلع بها باحثون سعوديون.

٥ ــ غرفة المراقبة في محطة الطاقة الشمسية التابعة للمركز الوطني السعودي للعلوم والتكنولوجيا حيث يقوم المركز ببحوث موسعة في نطاق تقنية الطاقة الشمسية.

تصوير: مايك اسحق

التجربة الشعرية هي التعبير بالشعر عن التجربة الشعورية. والتجربة الشعورية هي رد فعل نفسي لحدث مؤثر. وبعبارة أدق: هي استجابة وجدانية لمثير ما: ماديا أو معنويا. ومهما كانت القدرة الشعرية لدى الشاعر قوية، تظل تجربته الشعورية أعمق وأصدق من تجربته الشعرية، لقصور الأداء الشعري — وان عظمت درجة نصاعته — عن التعبير المبين عما في نفس الانسان من فكر ووجدان.

ويمكن القول لهذا بأن نسبة الشعر الى الشعور — على وجه العموم فيهما — تتردد بين أن تكون نسبة واحد الى واحد، وهذا نادر جدا، وأن تكون نسبة واحد الى أكثر من واحد، ولا حدّ لهذا الأكثر. لكن الشاعر الحق، وهو الشاعر الموهوب، صاحب الحضور الشعري في معظم مواقفه الشعرية، يأتي في المراحل المتقدمة من النسبة السابقة بشقيها. ويمكن الحكم عليه من خلال بعض قصائده بأن تجربته الشعرية تكشف عن حيز كبير من تجربته الشعورية، وتبرز الى الوجود منها هيكلها العام، وكثيرا من سماتها الجمالية، وملامحها الفنية.

واذا تساءلنا عن الهيكل العام للتجربتين: الشعورية والشعرية ماهو؟

وعن السمات الجمالية، والملامح الفنية لهما ماهي؟

وجدنا أنفسنا أمام حشد هائل من الاجابات المختلفة باختلاف جوانب هاتين التجربتين ومكوناتهما العضوية، ولأن التجربة الشعورية من الأمور المعنوية، وتظل — مادامت مجرد تجربة شعورية — مخبوءة في ضمير الشاعر، ومدومة في أعماقه، لا علم لنا بها حتى يبلورها ويظهرها في تجربة شعرية، فاننا سننتقل توّاً الى التجربة الشعرية، ذلك أن التجربة الشعرية انما هي الجسم المادي الحي للتجربة الشعورية.

واذا كنا قد عرفّنا التجربة الشعرية بأنها التعبير بالشعر عن التجربة الشعورية، فان مفهوم ذلك أن تكون الأحاسيس والمشاعر هي أهم العناصر في التجربة الشعرية، ولا يحتاج الشاعر الى حدث كبير يثيره، ولا الى موضوع خطير يحركه، فقد يكون الحدث صغيرا، وقد يكون الموضوع غير بالغ الأهمية، ومع هذا يستطيع الشاعر بما له من موهبة، وبما عنده من شاعرية، أن يتفاعل معه، وأن يحيطه بهالة كبيرة من احساساته ومشاعره، وليس هذا أمرا سهلا ولا عملا هينا، ذلك أن عالم الشعور عالم واسع وعميق، ومكوناته في الغالب تكون صاخبة وجياشة وذات ضغط قوي على صاحبها حتى يطلقها من قمقمها. بأيها يبدأ؟ وبأيها ينتهي؟ وما الترتيب الذي ينبغي له أن يراعيه وهو يخرجها من عالمها الداخلي ويودعها عالمه الشعري ممثلة في قصيدة أي في تجربة شعرية؟

هذه أسئلة تجيب عنها فطنته وخبرته الطويلة بدنيا الشعر، وهو فيها ملكها المتوج، ولأنه في دنيا الشعر ملكها المتوج، عليه أن يوظف عقله في تنظيم أحاسيسه وترتيبها على حسب أهميتها، حتى ينزلها منازلها التي تتلاءم معها.

وهذا يعني أن التجربة الشعرية لاتستغني عن قدر من الفكر يضبطها، ويجعلها أو يساعد على جعلها مفهومة ومنطقية.

واذا كان هذا القدر من الفكر لازما للتجربة الشعرية كالعاطفة، فانه أقل منها أهمية، وعلى الشاعر أن يحاذر من أن يجعل لفكره الغلبة على تجربته الشعرية، ان قصيدته حينئذ تفقد الأساس الذي تقوم عليه أصلا وهو المشاعر الوجدانية.

ليفهم أنه بازاء عمل نفسي مجاله الشعر، وليس بازاء عمل عقلي مجاله النثر، واذا خرج الشعر عن مجال الشعور لم يعد شعرا، وان كان موزونا مقفى. ان التجربة الشعرية يجب أن تظل تجربة شعرية، للعقل فيها دور، وله معها عمل، لكنه دور محدود، وعمل مشروط بألا يخرجها من عالمها الوجداني الى عالم التجريد والصور العقلية.

التجربة الشعرية

بقلم: د. عبده عبدالعزيز قلقيلة / الرياض

ولعله من هنا كان الخيال ضروريا، وشيئا جوهريا في التجربة الشعرية، وترجع أهمية الخيال في التجربة الشعرية الى قصور اللغة المعجمية عن ابراز الشعور، وعن تجسيده تجسيدا يساعد متلقيه على تمثله، وعلى الاحساس به، ثم على المشاركة فيه مشاركة وجدانية.

ونوضح ذلك أكثر فنقول: ان الخيال هو الذي يخلق الصورة الشعرية جزئية كانت أو كلية، ثم هو الذي يمد هذه الصورة بالطاقة اللازمة لها كي تتحرك وتحقق أهدافها الفنية، ولولاه لعجزت لغة الشعر — مهما كانت راقية — عن أداء التجربة الشعرية.

بقي عنصر هام من عناصر التجربة الشعربة هو الموسيقى. والموسيقى عنصر طبيعي وبديهي في أية تجربة شعرية، اذ به تدخل العملية الابداعية محرابها الفني الذي سميت باسمه، ونسبت اليه وهو الشعر.

ونقادنا القدامى — عدا ابن خلدون — لم يلتفتوا الى اي عنصر من عناصر التجربة الشعرية قدر التفاتهم الى هذا العنصر، فهم لم يذكروا المشاعر والأحاسيس، ولم يذكروا الفكر والخيال، لم يذكروا الا أن الشعر هو الكلام الموزون المقفى، وكأنهم لا يعرّفون الشعر، وانما يذكرون الفرق بينه وبين النثر، ولو حملنا تعريفهم للشعر على هذا المحمل، لوافقناهم، ولأثنينا على تنبههم الذكي الى هذا الملمح المهم من ملامح التجربة الشعرية.

وإنما كانت الموسيقى ضرورية للتجربة الشعرية، تفاديا لعجز اللغة — وان كانت مجازية — عن سرعة وقوة وفاعلية التحرك بالشعور الداخلي لدى الشاعر نحو التجربة الشعرية أولا، ثم سرعة وقوة وفاعلية نقل هذا الشعور من التجربة الشعرية الى متلقي هذه التجربة، والموسيقى في هذا كالخيال، لكنها تأتي قبله، فقد يخلو بيت أو مقطوعة في القصيدة من الخيال، هذا وارد وممكن وهو حاصل بالفعل فيما يسمى بالأبيات الحكمية، أو بشعر الحكمة جملة. لكن من غير المسلم به أصلا، أن يخرج شطر واحد، بل كلمة واحدة عن موسيقى البحر الذي بدأ الشاعر بالتجديف فيه من أول وهلة.

والخلاصة أن الموسيقى هي التي تعطي للشعر نكهته ومذاقه الخاص وتهبه مظهره الفني، أما بقية العناصر من احساس وفكر وخيال فتكوّن معها هيكل التجربة الشعرية مضمونا وشكلا.

ماذكرناه كان الهيكل العام للتجربة الشعرية، لكن ما خصائص هذه التجربة؟ في الاجابة عن هذا السؤال نكتفي بثلاث خصائص هي:

* أن يكون للتجربة الشعرية موضوع يعطيها اسمه. ليكن هذا الموضوع مدحا أو هجاء أو رثاء أو غزلا أو وصفا، ليكن قضية سياسية أو ظاهرة اجتماعية أو موقفا أخلاقيا أو حدثا يوميا أو مخترعا مدهشا.

نوع الموضوع غير مهم، أما المهم فهو مدى تأثيره في الشاعر، ودرجة انفعال الشاعر به، وانطلاقه من خلاله الى عوالم جديدة يلتقط منها صورا موحية مؤثرة، وانما كانت موحية ومؤثرة، لأنها تضرب بجذورها في الحس والشعور، وتقوم منآدها بالفكر والخبرة، وتطير بجناحين من الخيال والموسيقى.

* أن تكون التجربة الشعرية، والصور المنبثقة عنها متسقة ومتعاونة على ايصال مضمونها أو مضامينها الى مستقبلها، وعلى احداث المتعة له بها مهما كانت هويتها.

* من الصحة الفنية، ومن مظاهر الحيوية في التجربة الشعرية أن تكون قادرة قدرة ذاتية على أن تتحول عند القارئ أو السامع الى تجربة شعورية بنفس درجة تأثيرها السابق على الشاعر، وبنفس درجة وضوحها عنده □

المغزى البلاغي لظاهرة القسم في القرآن الكريم

بقلم: د. عبدالفتاح محمد سلامة / المدينة المنورة

كان ورود القسم في كتاب الله عز وجل مدعاة لبعض قصار النظر، أن يرغوا ويزبدوا، ويتقولوا على مجيء هذا اللون في القرآن الكريم، فثارت شبه كثيرة مؤداها: «لماذا يصدر القسم من الله ببعض المخلوقات؟ ثم ان الذى يقسم يكون مضطرا الى هذا: لنفي تهمة الكذب عنه والله منزه عن ذلك؟ أوليس في الحلف ببعض المخلوقات تقديس لها؟ فكيف يقدس الله أشياء هو الذى أبدعها، وقد تكون هذه الأشياء ليست ذات بال؟»..

ولكي نجيب على هذه التساؤلات الثائرة: ينبغي أن ندرك أن أكثر الأقسام في القرآن: استدلالية، أى أنها تساق ليستدل بها على ثبوت شيء أو نفيه.... وحملها على الاستدلال هو اللائق بجلال الله، وسمو كتابه، لأنه ليس من اللائق: أن يفهم قسم صادر من الله، على أنه محاولة لنفي الكذب عن المقسم، ولا على أنه تقديس للمقسم به، لأن هذا التقديس يجوز على البشر، ولا يصح مع الخالق..

ثم ان القرآن يتصرف في أساليبه، فتارة يذكر الأمور الدالة على وجود الله ووحدانيته وقدرته في أسلوب القسم بها، وتارة يسوقها مساق العظة والتوجيه، وهى في الحالين: بينات على ماسيقت له، لمن يتفكر فيها أو يتدبر مراميها:

قال تعالى: «**أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت، والى السماء كيف رفعت، والى الجبال كيف نصبت، والى الأرض كيف سطحت**..» الغاشية/١٤ — ١٧ وقد يصحب القسم القرآني: مايفيد التعقل والتفكر، كما نراه في قوله تعالى: «**والفجر وليال عشر، والشفع والوتر، والليل اذا يسر، هل في ذلك قسم لذى حجر**..» الفجر/١—٥..

«على أنه ليس من المعقول أن يتصور الانسان: أن الخالق يقدس مخلوقاته التي أقسم

بها، وهي كما ذكر القرآن مرارا مسخرة طائعة، لا تملك لنفسها ولا لغيرها ضرا ولا نفعا، ولا تستطيع من الأمر شيئا..»..(١)

والقسم كذلك قد يأتي في القرآن، وله طابع التعميم، ليخلص منه الى تعميم الآيات الدالة، والبراهين الناطقة.. قال عز من قائل: **«فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون..»** .. الحاقة/٣٥.. فأقسم بكل شيء مما تدركه الحواس، ومما لا تدركه، فكيف يتوهم أن هذا القسم مقصود به تقديس الأشياء؟

ولا مانع أن يمهد الذكر الحكيم للقسم بالآيات الدالة، ليؤكد أمرا من الأمور: قال تعالى: **«وفي الأرض آيات للموقنين، وفي أنفسكم أفلا تبصرون، وفي السماء رزقكم وما توعدون، فورب السماء والأرض انه لحق مثل ما أنكم تنطقون..»** ..الذاريات/٢٠—٢٢

وليس من ريب أن هذه الآيات؛ القصد منها تحريك الخواطر الى وجود الله سبحانه، وكذا صدق النبوة وثبوت البعث.. والقسم بالله هنا: مراد به التقديس، لأنه بالله المعبود بحق.. على أننا لو رجعنا الى ألوان القسم وأجوبتها: لألفينا ملاءمة واتساقا بينها، ومن ثم فان مناسبة قوية نلمحها: تربط بين القسم والمقسم به والمقسم عليه، وهذا يؤكد ماقلناه: انها أقسام استدلالية... قال تعالى: **والذاريات ذروا، فالحاملات وقرا، فالجاريات يسرا، فالمقسمات أمرا، انما توعدون لصادق، وان الدين لواقع..**».. الذاريات/١ — ٦ فأقسم بالرياح التي تذرو التراب وبخار الماء، وتسوق السحب في اتجاهها، وتحملها وتفرقها على أماكن شتى، وتجرى في الفضاء جريانا سهلا، وتقسم الأمطار... وجاء القسم ملائما للاستدلال، وهو صدق البعث ووقوع الثواب والعقاب، لأن الله الذى أنشأ الرياح وسيرها، وخلق السحب والأمطار، وصير الماء بخارا فسحبا فماء مرة ثانية: قادر على أن يعيد الموتى ويبعثهم يوم القيامة...

نخلص من هذا: بنتيجة هي في حقيقتها سؤال يلح على الأفكار: اذا كان الأمر كذلك، وكان معظم ألوان القسم، مقصودا به ناحية استدلالية.. فلماذا لم يلجأ القرآن الى الطريق الصريح: ليقيم الدليل على قضية يريد ثبوتها أو نفيها؟ ولماذا استخدام هذه الأساليب من القسم؟

والجواب على هذا: أن الدليل الخالص يحسن عندما يوجه الخطاب الى العقل، وليس المخاطب راغبا عن الدعوى، ولا نافرا منها.. أما اذا كان الخطاب للعاطفة، أولها وللعقل معا، والغرض منه الاثارة والتأثير، والمخاطب نافرا أو معاند.. فان البرهنة تسلك مسلكا آخر، ولتجذب المخاطب، وتمتلك نفسه... ومن شأن الأسلوب المتنوع: أن يجدد الانتباه والشوق.. ولذا قال الله: «**أنظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون..**» ..الأنعام ٦٥.. والقسم ضرب من الأسلوب الانشائي: لا مندوحة للخصم من الاقرار به، ولا وجه له في انكاره، فان شاء أن ينكر انصب انكاره على جواب القسم، لا على القسم نفسه، لأن الجواب خبر لا انشاء...

وقد يجمع القرآن بين القسم والوصف، كالقسم بالقرآن المجيد، واليوم الموعود، ففي هذا وأشباهه: قسم، ووصف للمقسم به، ليكون الاستدلال أعظم في النفس وأوقع.. وقد يحذف القرآن جواب القسم، وهو المقسم عليه، فينقل بعد القسم الى كلام آخر، لكنه مرتبط بالجواب المحذوف.. «والسر في هذا أنه يسد على المخاطب المفكر طريق الفرار، فلا ينتقل من القسم وهو انشاء، الى الجواب وهو خبر، لئلا يمارى المفكر في الجواب، ثم ليكون القسم كالتمهيد والتنبيه، فيسترعى سمع المخاطب، فيرهف أذنه ليستمع مابعد القسم، فاذا به يسمع مايؤيد الاستدلال المقصود من القسم نفسه..» (٢)

قال تعالى: «**ص والقرآن ذي الذكر، بل الذين كفروا في عزة وشقاق..**» .. ص/١—٢ فأقسم بحرف من حروف الهجاء: على سبيل التحدى والاعجاز، وأتبعه بالقسم بالقرآن، وحذف الجواب لدلالة التحدي عليه، كأنه قال: والقرآن ذي الذكر: انه لكلام معجز، ولكن الكفار يستكبرون أن يذعنوا له، فيعارضون الرسول ويكذبونه..

ثم ان من مزايا القسم: أنه يسهل الجمع بين عدة أدلة، في جملة واحدة، أو في جمل متلاحقة، كما في سورة التين والبلد والطور. مع الايجاز، ولو أن الأدلة فصلت، وبسط فيها القول لفقد الكلام روعته وتأثيره.. ولا يغيب عن الذهن، أن الأقسام المقصود بها الاستدلال تحث المخاطب على استنباط الدليل، وجعله مرتبطا بالمتكلم، فيا يشيح عنه، وهذا بدوره يساعد على التخفيف من حدة عداء الخصم، وربما ظهرت له الحجة فيسلم بها، في غير مكابرة أو عناد...

ومن ثم كانت الأساليب الانشائية كلها: أكثر اجتذابا للسامعين، وتأثيرا فيهم من الأساليب الخبرية.. وهذا هو السبب في أن الحاذق اللبق ينوع في أسلوبه، ويراوح بين الانشاء والخبر، لينشط المخاطب، ويشركه في الفهم والبحث والاستنباط، حتى لا يتوهم انه هو الذى اهتدى الى الحق بنفسه..».. (٢).

وهكذا تأتي صور القسم في كتاب الله جل وعلا، لملاحظ بلاغية، هي مظاهر للاعجاز الخالد للقرآن الكريم.. وبذلك تسقط حجج المعاندين، وتتهاوى أقاويل القاصرين، ويبقى دستور السماء كما أراد الله له: «**لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه..**»..فصلت/٤٢

المراجع:

١— «مع القرآن» ص /١١٥ د. احمد الحوفي — ط. النهضة

٢— «مع القرآن» ص /١١٨

٣— «مع القرآن» ص/١١٩

هل تعلمين أيا غرناطة العرب ... ماحلّ فينا على الأيام والحقبِ
مِنْ بعدكِ العزُّ ولّى والعلا رحلا ... وغُيّبَ المجدُ يا غرناطُ فاحتجبي
أيامكِ الغرُّ دالتْ والنهى خرفتْ ... والشمسُ عنكِ مع الاسلام لم تغبِ
ياويح يعربَ قد قُصّتْ مخالبُه ... مِنْ يوم فَقْدِكِ مذهولٌ ولم يثِبِ



جولة في الحمراء:

الأثر الإسلامي الخالد في غرناطة

إبراهيم أحمد الشنطي / هيئة التحرير

على الرغم من مرور نحو خمسة قرون على سقوط غرناطةفانها لا تزال تحتفظ بالكثير من الآثار الاسلامية وأهمها قصر الحمراء وجنة العريف. ولقد بقيت غرناطة بأيدى المسلمين مدة تربو على ٢٥٠ سنة بعد سقوط قرطبة، لكنها يوم سقطت، في أيدى الملكين «فرناند» و «ايزابيلا» عام ٨٩٧ هـ ١٤٩٢م، سقطت دولة المسلمين في الأندلس، ولم تقم لهم قائمة بعد ذلك مع أنهم عمروا تلك البلاد نحوا من ثمانية قرون، من ٧١١ الى ١٤٩٢م.

تقع غرناطة في منبسط من الأرض تطل عليه جبال سيرانيفادا التي يكللها الثلج صيفا شتاء، كما يمر بذلك المنبسط نهر الوادي الكبير الذى يمر أيضا بقرطبة وأشبيلية.

الأراضي على جانبي الطريق بين قرطبة وغرناطة مزروعة بالحبوب والغلال والكثير من أشجار الزيتون الصغيرة والكبيرة، وخاصة بعد قرية «بيينة» التي تتوسط الطريق بين المدينتين. وتستغرق المسافة بين قرطبة وغرناطة حوالي ثلاث ساعات بالسيارة.

في الطريق وقفنا لالتقاط بعض الصور لاحدى القلاع التاريخية فشاهدنا الكثير من الأزهار والأعشاب البرية كالتي تنبت في شرقي البحر المتوسط مثل: شقائق النعمان، الأقحوان، المدادة، الخرفيش، السنارية، الخلة، الخافور، الفجيلة، نبات المكانس



مدرج مكشوف في وسط جنة العريف يستخدم لاقامة الحفلات والتمثيليات في المواسم وأيام الاحتفالات.



وغيرها كثير مما غاب اسمه عن الذاكرة.

في مدخل غرناطة، من ناحية قرطبة، عمارات حديثة البناء، من بضعة طوابق، وأحياؤها الجديدة منسقة ذات شوارع فسيحة، وأكثر السواح الذين يحضرون اليها يتجهون مباشرة الى قصر الحمراء وجنة العريف لمشاهدة آثار العرب والمسلمين الذين سادوا تلك البلاد ردحا من الزمن.

يقدر عدد سكان غرناطة حاليا بنحو ١٦٠ الف نسمة، في حين تذكر بعض المصادر التاريخية أن عدد سكانها في أواخر عهدها بالاسلام بلغ حوالي نصف مليون نسمة.

يوجد في غرناطة أكثر من متحف علاوة على الكائن في الحمراء الذي جُمع فيه الكثير من الآثار الأندلسية كقطع الرخام والمرمر واللوحات الخشبية ذات النقوش البديعة، كما توجد لوحات ترمز الى تاريخ استيلاء النصارى على غرناطة، آخر معقل للمسلمين في الأندلس.

الطريق من غرناطة الى قصر الحمراء، يمر صاعدا عبر غابة من الأشجار الباسقة يعود تاريخ انشائها الى القرن الماضي فقط. وقبل بدء دوام العمل الرسمي تجد السواح قد ملأوا ساحة القصر بانتظار الدخول. وما أن يحصلوا على التذاكر حتى يبدأوا تجوالهم بهمة ونشاط. فالمكان واسع متشعب، تبلغ مساحته حوالي ١٥٠ ٠٠٠ متر مربع، ولولا ضيق الوقت، الذي يحاصر الجميع، لمكث المرء في تلك الأرجاء أياما وليالي يسترجع فيها ذكريات العرب والمسلمين وأمجادهم الغابرة، ويستمتع بما احتوته من الورود والأزهار الندية والأشجار الباسقة.

تقوم قصور الحمراء على هضبة مرتفعة تطل على غرناطة وكأنها ترعاها. وكانت الحمراء في بادىء الأمر قلعة متواضعة، ثم أنشأ فيها «باديس بن حبوس»، زعيم البربر، حصن القصبة. ولما تغلب محمد بن الأحمر على غرناطة بنى قصر الحمراء والسور كما أقام عددا من القلاع فيها واتخذها مركزا. ويقال ان اسم الحمراء يرجع الى لون الآجر الأحمر الذي بنيت به الأبراج، كما يقال ان تسميتها ترجع الى محمد بن الأحمر، وكذلك الى المشاعل الحمراء التي كانت توقد فيها ليلا وغير ذلك.

ويجدر بنا قبل أن نبدأ جولتنا في تلك القصور والجنان أن نقتبس بضعة أبيات في وصف الحمراء للشاعر الوزير محمد بن يوسف المعروف بابي عبد الله بن زَمْرَك. وهذه الأبيات مترجمة للانجليزية ومنشورة في الصفحة الأولى من كتاب صقيل به مجموعة جميلة من الصور الملونة يشتريه السواح، غالبا لدى شرائهم تذاكر الدخول الى الحمراء، يقول ابن زَمْرَك:

قفْ بالسبيكة وانظرْ ما بساحتها (١)
عقيلةً والكثيبُ الفردُ جاليها
تقلَّدتْ بوشاحِ النهر وابتسمتْ
أزهارُها وهي حَلْيٌ في تراقيها
وللسبيكةِ تاجٌ فوق مفْرقها
تودُّ دُرُّ الدراري لو تحلّيها
فان حمراءَها والله يكلؤها
ياقوتةٌ فوق ذاك التاج يُعليها

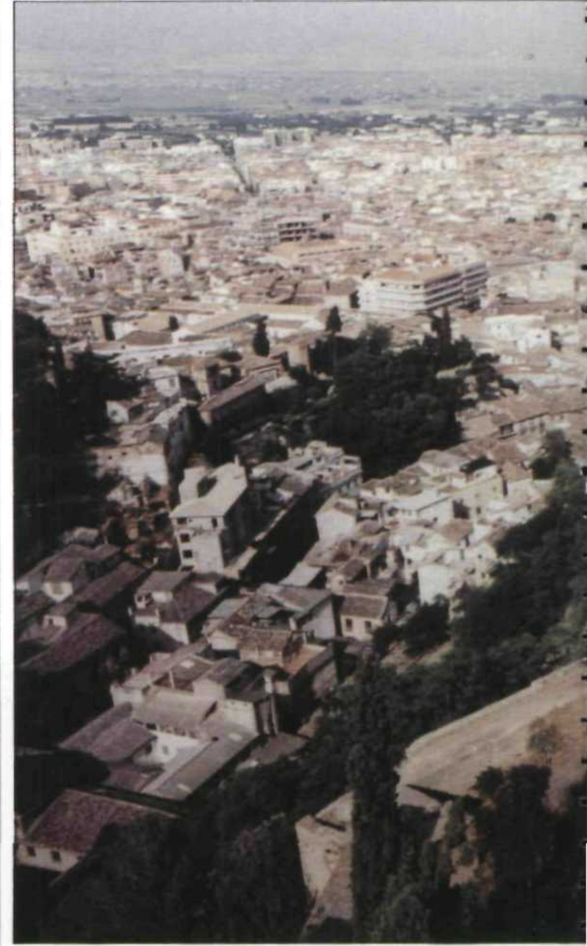
انها أربعة أبيات من قصيدة تربو على مئة بيت، أنشدها ابن زمرك في تهنئة السلطان الغني بالله في أحد الأعياد. ولابن زمرك الكثير من القصائد في وصف غرناطة، وكثير من شعره منقوش في قصور الحمراء. ويقال انه قد قتل هو وولداه في عهد «الغني بالله» عندما وُشي به لديه.

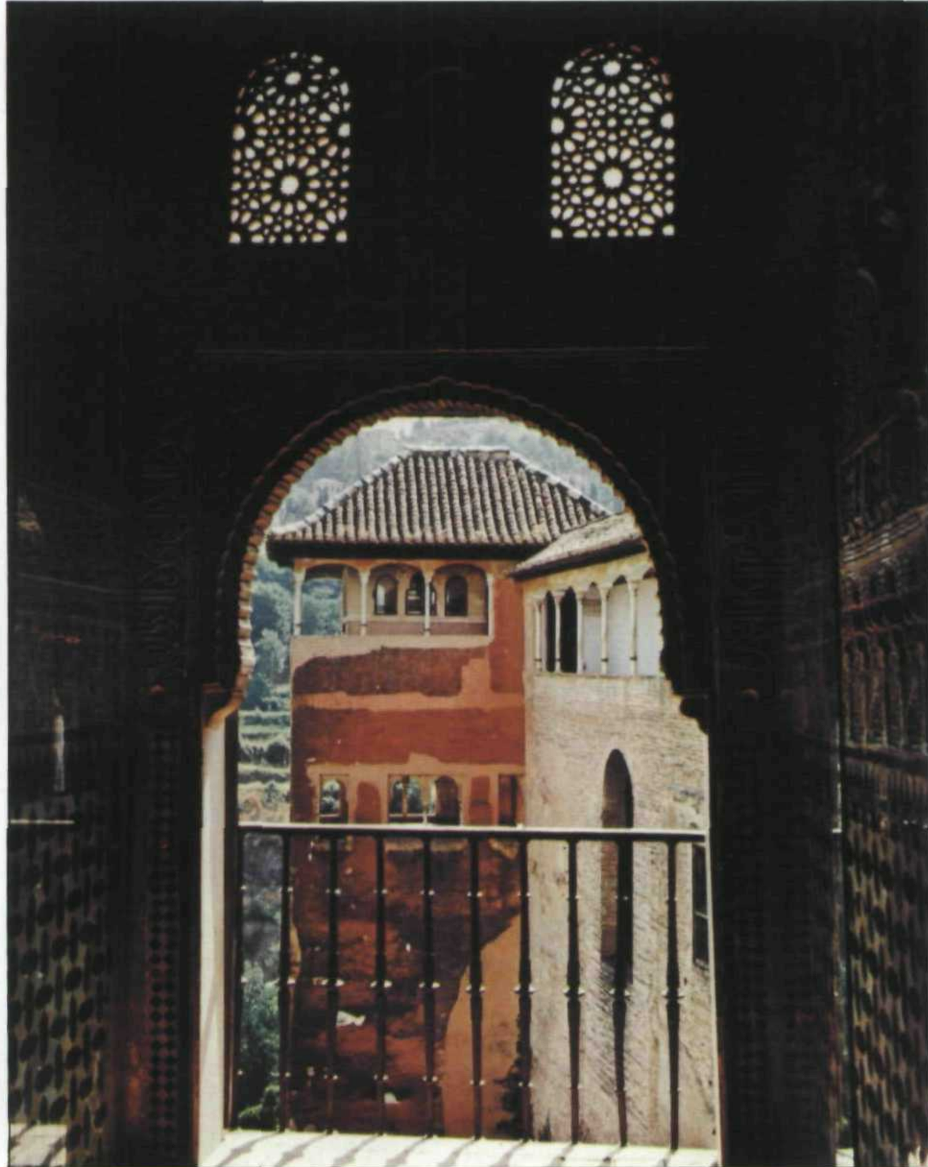
يبدأ المرء تجواله في الحمراء صاعدا الى أبراج القصبة — الى يساره، تاركا قصر تشارلس الخامس المربع الشكل خلفه، حيث أنه سينتهي به عند اتمام جولته. ويصعد المرء في القصبة من درج الى درج، ومن باب الى باب، ومن ردهة الى أخرى، بعضها فسيح وبعضها ضيق. ومن سطح أعلى برج فيها، ويسمى برج الحراسة، ينظر المرء حواليه ليشاهد غرناطة وقد امتدت امامه مترامية بين الأشجار والخضرة، ويشاهد جبال «سيرانيفادا»، التي يغطي الثلج قممها وسفوحها العليا صيفا شتاء. وعلى جانب من السطح أقيم بناء معقود في وسطه ناقوس ضخم. وبعد أن يلتقط المرء ما يشاء من الصور، ينزل حَذِراً كما صعد ليسير حسب أسهم ترشد السواح الى الطريق فلا يفوتهم شيء يهمهم مشاهدته.. ولكن هيهات.

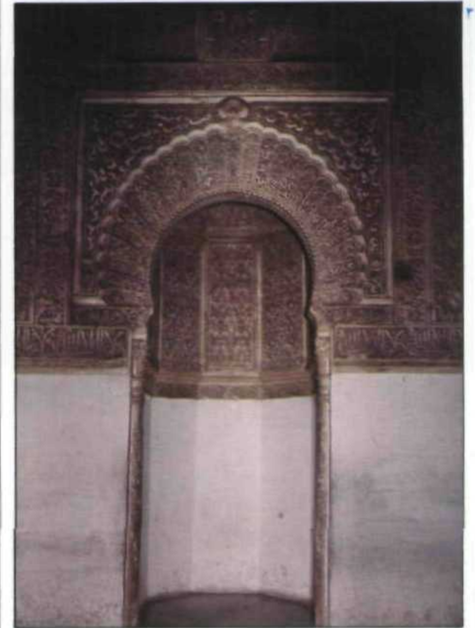
القصر الملكي

بعد ذلك يتجه السائح الى القصر الملكي فيطوف، مشدوها، بروائع الفن المعماري والزخارف الجميلة والنقوش البديعة في أرجاء القصر، بل القصور، متنقلا في قاعاتها وأبهائها، يتدافع مع مجموعات السواح والطلاب،الصغار منهم والكبار،ويسمع خليطا من لغات شتى، الا العربية، ويشاهد ملامحهم تتقلب وشفاههم تلتوي وحواجبهم تعلو وتنخفض. فيجمع ذلك الى ما التقط من كلامهم ليفهم بأنهم معجبون بما يشاهدون، بل ومأخوذون بروعته وجماله.. ويشاهد المرء ويقرأ شعار بني نصر «ولا غالب الا الله» منقوشا في العقود والجدران، وفي الأبواب والنوافذ، وفوقها وحولها، ويقرأ: وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وسلم تسليما.. بسم الله الرحمن الرحيم... الملك لله... والهكم اله واحد لا اله الا هو الرحمن الرحيم... ويشاهد آية الكرسي منقوشة بأكملها، ويقرأ «ولا غالب الا الله» في كل اتجاه.

هنا قاعة يبدو أنها كانت مسجدا للخاصة من أهل القصر، يتسع لحوالي عشرين شخصا. في الجهة الشرقية من القاعة، باتجاه القبلة، يوجد محراب ذو عقد، في الجانب الأيمن من المحراب وعلى ارتفاع متر ونصف تقريبا، يقرأ: «أقبلْ على صلاتك»، وفي الجانب الأيسر وفي المستوى ذاته يقرأ: «ولا تكن من الغافلين». وشعار «ولا غالب الا الله» منقوشة في مختلف الأرجاء داخل القصر في







١ — غرناطة كما تبدو من احدى الشرفات بقصر الحمراء.

٢ — محراب لمسجد صغير داخل القصر الملكي وقد نقش الى يمين الامام «أقبل على صلاتك» ونقش الى يساره «ولا تكن من الغافلين».

٣ — شرفة خلفية لاحدى غرف القصر، لاحظ انخفاض الأشجار الباسقة من خلف القصر.

الأعمدة وتيجانها والأقواس والعقود، وفي الجدران وفوق النوافذ والأبواب كذلك.

فناء الريحان

ويسمى أيضا فناء البركة، وهو مساحة مكشوفة مستطيلة الشكل طولها ٣٧ متراً وعرضها ٢٤ مترا تتوسطها بركة غير عميقة مستطيلة الشكل أيضا، وعلى جانبيها، طوليا، شجيرات الريحان ومن خلف الشجيرات حجرات عدة.

على جانبي البركة، بالعرض، سبعة عقود في كل جانب، ذات نقوش جميلة رائعة، وفي مقابل العقد الأوسط منها مدخل يفضي الى عدد من الحجر والقاعات. وفي أحد الجانبين العرضيين تقوم قاعة السفراء يعلوها برج «قمارش» الذى ينعكس أعلاه في بركة الماء


١


٢

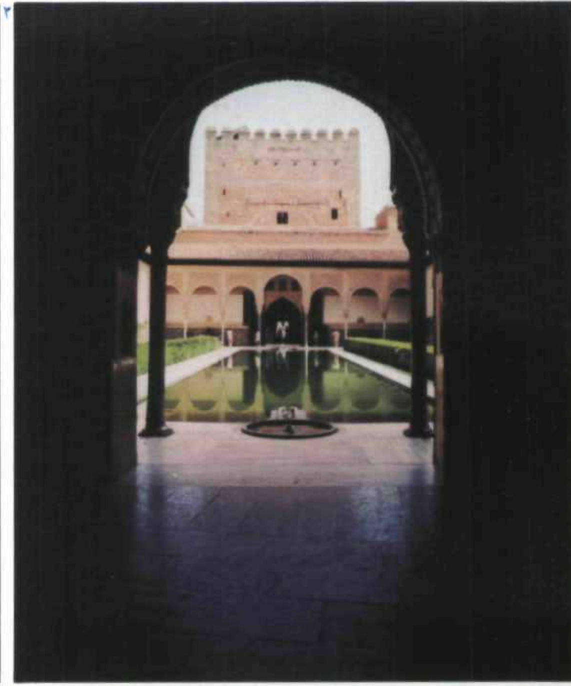


٣


٤

السالفة الذكر. وكلمة «قمارش» ربما تكون مأخوذة من الكلمة العربية «قمرية». ويبلغ ارتفاع البرج من ناحية البركة نحو ٢٣ مترا، أما من الخلف حيث السور المرتفع والأرض المنخفضة فيبلغ ضعف ذلك تقريبا.

جميع تيجان الأعمدة، التي تقوم عليها العقود، مزدانة بشعار ملوك بني نصر «ولا غالب الا الله»، مكتوب بخط كوفي جميل. كما نقش الشعار على العقود نفسها وعلى جوانب الأبواب والنوافذ. وتمتاز قبة قاعة السفراء بنقوش غاية في الروعة والجمال محفورة في خشب الأرز، وحول القبة من الداخل نقشت آيات من القرآن الكريم، وفي جدران القاعة أو البهو يتكرر نقش شعار بني نصر في كل اتجاه،



كما نقشت في أماكن أخرى متعددة أبيات من الشعر لا يزال الكثير منها مقروءا. وفي هذه القاعة الفخمة تقرر مصير غرناطة بل الأندلس بأسرها، وذلك عندما عقد الملك محمد أبو عبد الله مجلسه الأخير بحضور عدد من رؤساء القوم للتشاور في أمر الحصار المفروض عليهم، وفي عرض ملك قشتالة لتسليم المدينة له. وفي ختام تلك الجلسة وقف أبو عبد الله محزونا كاسفا وهو يقول: «تالله لقد كتب عليّ أن أكون شقيا، وأن يذهب الملك على يدي» (٢).

فناء الأسود

احدى روائع الفنانين المسلمين في العصور الخوالي، وأكثر معالم غرناطة شهرة، وهو عبارة عن ساحة مستطيلة مكشوفة طولها من الشرق الى الغرب ٣٥ مترا وعرضها ٢٠ مترا. يتوسط الساحة حوض يقوم على ظهور اثني عشر أسدا تقف في بركة قليلة الغور. الماء يتدفق من أفواه الأسود وكذلك من نافورة في وسط الحوض، والساحة المكشوفة مقسومة الى أربعة أجزاء يفصل بينها ممرات تربط بين القاعات، في جوانب الساحة وبين حوض الأسود في الوسط. في الحافة العلوية للحوض أبيات من الشعر من قصيدة ابن زمرك في وصف الحمراء. الحوض والأسود منحوتة من الرخام الأبيض الذى أصبح داكن اللون مع الزمن واستمرار تدفق الماء على حوافه وعلى الأسود ذاتها. على جوانب الساحة توجد ردهات مستطيلة ذات أقواس تقوم على أعمدة رخامية، منفردة أو مزدوجة.

ومن الأبيات المنقوشة في حافة الحوض قول ابن زمرك:

يذوب لجينٌ سالَ بين جواهرٍ
غدا مثلَها في الحسن أبيضَ صافيا
تشابه جار للعيون بجامدٍ
فلمْ ندرِ أيا منهما كانَ جاريا
ويا وارثَ الأنصارِ لا عن كلالةٍ
تراث جلاَل يستخفُّ الرواسيا
عليك سلامُ الله فاسلمْ مخلَّداً
تُجددُ أعياداً وتُبلي الأعادِيا

في الجهة الجنوبية من فناء الأسود توجد قاعة بني سراج، وهي قاعة رخامية الأرض، ذات قبة عالية مزركشة، نقش وسطها شعار بني نصر، وفي جوانبها بعض أبيات لابن زَمْرَك، منها:

تبيتُ له خُنْسُ الثرياً معيذةً
ويصبحُ معتلَّ النواسيمِ راقيا

---

١ ـــ فناء الريحان أو البركة وهو من أبهى وأجمل معالم الحمراء.

٢ ـــ برج قمارش ومن تحته بهو السفراء، وكلاهما يطلان على فناء الريحان، وفي هذا البهو تقرر مصير غرناطة واسدل الستار على دولة المسلمين في الأندلس.

٣ـــ ٤ ـــ ٥ ـــ اينما اتجهت بنظرك في قصور الحمراء ستجد شعار بني نصر، ملوك غرناطة، منقوشا أمامك بأشكال متعددة، «ولا غالب الا الله».

وفي وسط القاعة توجد نافورة ذات حوض مستدير، فيها بقعة داكنة يقال إنها آثار دماء بني سراج الذين أطاح بهم السلطان واحدا بعد الآخر في هذه القاعة، والأصح انها اكسيد الحديد الناتج عن وجود الماء وانصبابه بها باستمرار.

وفي الجهة الشرقية من الفناء توجد قاعة الملوك أو قاعة العدل. في جانب من سقفها نقشت صور عشرة رجال ذوي عمائم يقال انها لملوك غرناطة الذين سبقوا أبا عبد الله محمد، ابن السلطان أبي الحسن، كما نقشت في السقف بعض صور الفروسية.

وفي الجهة الشمالية من الفناء توجد قاعة الأختين، وقد سميت كذلك لاحتوائها على قطعتي رخام ضخمتين متساويتين في الحجم والشكل. والقاعة مزدانة بالكثير من النقوش منها شعار بني نصر وبعض الأبيات الشعرية والأدعية للسلطان أبي عبد الله الغني بالله. وهناك ممر صغير يفضي الى غرفة الملكة. وفي تلك الجهة أيضا أقيم جناح للامبراطورة ايزابيلا، وقد أقامت فيه، من بعدها، زوجة فيليب الخامس وتدعى أيضا ايزابيلا. ومما يذكر أن الكاتب الأمريكي «واشنطن ايرفنج» قد أقام في أحد الأجنحة هناك حيث كتب


٢


٣

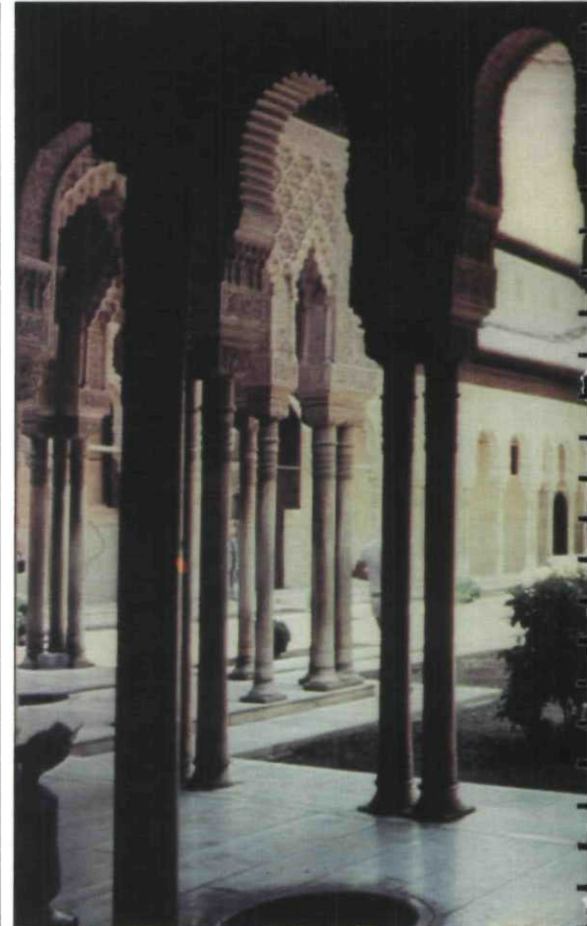
يعجب المرء ويحار في كيفية نقشها ونحتها في تلك الأيام الخوالي، وبأدوات يدوية بسيطة.

الآثار النصرانية

أهم الأثار النصرانية الموجودة في قصر الحمراء هي قصر كارلوس الخامس (تشارلس). وقد أقيم في مدخل الحمراء على مقربة من القصبة، وكان محاولة من الامبراطور ليضاهي القصور الاسلامية من ناحية، ولاستخدامه كمكان لاقامته من ناحية أخرى. وقد جاء هذا البناء شاذا في شكله وموقعه. وأثناء مشاهدتنا له كان أحد أدلاء السواح يشرح لهم قائلا: لقد كانت القصور الاسلامية نهاية عصر ملىء بالرخاء والرفاء فجاءت ذات طابع جمالي، بعكس هذا القصر الذي يدل مظهره على القوة والشدة وهي صفات المنتصرين.

والحق ان قصور المسلمين تجمع بين الجمال الحسي في داخلها، والقوة في مظهرها الخارجي. فهي، من الناحية المعمارية، متماسكة يشد بعضها بعضا كما في قصر القصبة، المقابل لقصر تشارلس. ففي القصبة أدراج ودهاليز تؤدي الى مختلف أجزائها، وجدران المبنى ضخمة والنوافذ فيه مرتفعة وضيقة وقليلة جدا في عددها وخاصة من الخلف. والباحات أمامها مستوية، أما خلفها، بعد السور، فمنحدر حاد يصعب تسلقه، وبعض النوافذ المطلة على هذا المنحدر واسعة يشاهد المرء من خلالها المناظر الطبيعية الخلابة. أما قصر تشارلس فبناء أجوف من طابقين، في وسطه ساحة كبيرة مستديرة، ومع أن جدرانه ضخمة الا أنها كثيرة الأبواب والنوافذ وخاصة في الطابق العلوى. وفي جداره الأمامي نقوش للفروسية وتماثيل آدمية ذات طابع نصراني. وقد بني القصر باشراف «بيدروماشوكا» الذى كان زميلا للرسام العالمي «مايكل انجلو» عندما كانا يدرسان في ايطاليا. وقد بدىء بانشاء القصر عام ١٥٢٧م. لكن العمل فيه توقف مرارا. وهو يضم الآن متحفا للأعمال الفنية الاسلامية الاسبانية، وتقام في ساحته الحفلات الموسيقية الخاصة ببعض الاحتفالات. ويرجع بعض المؤرخين ان القصر قد أقيم مكان قصر اسلامي كان يستخدم مقاما شتويا لملوك غرناطة.





١ — يختار المرء في مايقرأ ويشاهد من الآيات والنقوش والزخارف.

٢ — تقوم الحمراء على تل مرتفع يشرف على غرناطة، ومن خلف مباني الحمراء تنحدر الأرض بشكل حاد يجعل تلك المباني أكثر امتناعا على المهاجمين.

٣ — جانب من العقود والأعمدة الرخامية التي تحيط بفناء الاسود.

أشهر قصصه عن الأندلس ونشرها في كتاب «قصص الحمراء — Tales of the Al-Hambra» .

واذا ماوقف المرء في جانب من فناء الأسود فانه يشاهد روائع من أعمدة الرخام والعقود الجميلة وجميعها ذات نقوش وكتابات غاية في الدقة والجمال. ومن العقود مايعتمد أحد طرفي قوسه على عمود واحد أو على عمودين أو على ثلاثة أعمدة اذا كان القوس في أحد الأركان. وأكثر مايزين تيجان الأعمدة والأقواس والمقرنصات شعار بني نصر «ولا غالب الا الله» منقوشا بخط كوفي أو نسخي جميل تحيطه في بعض الحالات نقوش على شكل نباتات كالدوالي والورود والأزهار،

ومن الآثار النصرانية القديمة كنيسة «سانتا ماريا» التي أقيمت مكان مسجد غرناطة الذي أقامه الملك محمد الثالث، في أوائل القرن الرابع الهجري، وكان من أجمل مساجد غرناطة.

جنة العريف

ويسميها الاسبان Generalife، وتقع على مسافة نصف ميل الى الشمال الشرقي من الحمراء. وهي في منبسط من الأرض فوق ربوة عالية تطل على الحمراء وعلى غرناطة من تحتها. وجنة العريف عبارة عن حديقة واسعة رائعة الجمال والتنسيق. فيها من الأشجار الظليلة الباسقة والورود والأزهار اليانعة الشيء الكثير، ومن كل نوع ولون. فالطقس المعتدل والمياه المتوفرة والتربة الخصبة مضافا اليها العناية الدائمة تجعل من هذه الحديقة جنة رائعة الحسن.

في الحديقة قصر عربي ذو عقود ونقوش جميلة، بعضها آيات قرآنية، وبعضها أبيات من الشعر ودعوات: الحمد لله على نعمة الاسلام، الملك لله وحده، ولا غالب الا الله... وغير ذلك. ومن الشعر المنقوش في العقود الأبيات التالية:

رَقَمت يدُ الابداع في أرجائه
وشياً كمثل أزاهرِ البستانِ
فكأنَّ مجلِسَه العَروسُ تبرَّجَت
عند الزفافِ بحسنِها الفتَّانِ
وكفاه من شرفٍ رفيع القدرِ أنْ
نالَ اعتناءَ خليفةِ الرحَّمن
خيرُ الملوك أبو الوليدِ المنتقى
من نخبة الأملاكِ من قَحْطانِ
لحِقَتْه منه عناية قد جَدَّدتْ
منهُ جَمالَ مصانعٍ ومبانِ

ويحقق لنا الأستاذ المؤرخ محمد عبد الله عنان، في كتابه «الآثار الأندلسية الباقية»،من نصّ هذه القصيدة، دلالَة أنَّ «قصرَ جنة العريف قد جُدد وزين على يد السلطان أبي الوليد اسماعيل ملك غرناطة، الذي حكم من سنة ١٣١٤م الى سنة ١٣٢٥م. ومعنى ذلك أن القصر قد أنشيء في تاريخ سابق، والمرجح أنه أنشيء في أواخر القرن الثالث عشر الميلادي». بينما تذكر بعض المصادر التاريخية الاسبانية ان البناء أقيم في عهد أبي الوليد اسماعيل نفسه، عام ١٣١٩م.

والناحية الشمالية من جنة العريف مرتفعة تطل على ما دونها، وفي الناحية الجنوبية خندق

٢



٣



١





يخترقها من الشرق الى الغرب، ولعله لتصريف مياه الأمطار في الشتاء. ويبلغ عرض الخندق نحو مترين وعمقه بين ٣ — ٤ أمتار. وجانبا الخندق من الحجر، وعليه أكثر من قلعة صغيرة مهجورة، والنزول اليه والخروج منه بواسطة أدراج، كما أن على أحد جوانبه بعض العقود الأثرية القديمة.

يتوسط جنة العريف مسرح مكشوف يتسع المئات من الناس، وعلى مسافة منه حوض مستطيل يعتبر أبهى منظر فيها، وعلى جانبي الحوض الطوليين نوافير متعددة يتدفق الماء منها ويصب في الحوض مشكلا بذلك أقواسا جميلة. أما الأشجار الباسقة، وخاصة السرو، فتملأ المكان، وبعضها مشذب مقصوص على شكل عقود وأقواس وأبواب، والورد هو أكثر النباتات الزهرية في الحديقة، وهو أيضا متعدد الألوان.

ووسط هذه الحدائق والجنان، والظلال الوارفة، يطيب للسائح الجلوس، ليمتع نظره بالنوافير والأزاهير، وسمعه بخرير المياه وزقزقة العصافير. فاذا كان من ذوى الاحساس المرهف، وطوَّح به خياله في جوانب التاريخ العبق، وساءل تلك القصور العوالي عن أيامها الخوالي، فإنه يكاد يسمعها تردد بصوت شجي حزين مع أنين السواقي من حوله:

بالّله يا صاحِبي هوِّن مساءَلتِي
الشوقُ أشعلَ في أحشائيَ اللَّهبا
الدّهُر أبعدَ عنّي منْ أحبُهمو
ياويحَ دهْريَ قدْ أولانيَ العَجبا
كانوا أُباةً صهيلُ الخيلِ يُطربُهم
ما إن نخوتَهمُ إلاّ أَتْوا لَجَبا
لهم نفوسٌ اذا عايَنْتَها نَهَضَتَ
لاتَنْثني أبداً أو تَبلغُ الشُّهُبَا
الخُلْفُ أودى بهم في كلِّ تَهلكةٍ
كان البلاء ويبق دائماً سببَا

المسلمون في غرناطة حاليًا

يوجد في غرناطة حاليا جماعتان اسلاميتان، كانتا أصلا جماعة واحدة فانقسمت. احداهما تضم ٤٠ شخصا، خمسة عشر من الاسبان والباقون من جنسيات مختلفة، أما الأخرى فقيل ان عدد أفراد ها يبلغ المئتين. وقد زرنا مركز الجماعة الأولى، وهو عبارة عن شقة، في عمارة بوسط المدينة، معدة كمسجد للصلاة وللتشاور في أمور الجماعة، ولاستضافة من يزورهم من مناطق بعيدة.

---

١ — جناح النساء وفوقه البرج المسمى باسمه، وأمامه ردهة ذات خمسة عقود تطل على بركة واسعة على كل من زاويتيها البعيدتين أسد يتدفق الماء من فمه.

٢ — الورد هو أكثر النبات الزهرية في جنة العريف، والمبنى ربما كان منزلا للخاصة من الأسرة الملكية.

٣ — أخذت هذه الصورة من مكان مرتفع في جنة العريف وتري جانبا من تلك الحدائق الغناء ذات الظلال الوارفة.

وقد تحدثنا مع رئيس هذه الجماعة وعما اذا كان هناك اقبال على اعتناق الاسلام من قبل الاسبانيين فأجاب بالايجاب ، لكنهم في حاجة الى دعاة يستطيعون شرح مفاهيم الاسلام بطريقة مبسطة لا لبس فيها ولا تعقيد، تقوم على الحكمة والموعظة الحسنة.

كذلك يوجد في غرناطة مركز اسلامي للطلبة العرب، وهو عبارة عن شقة اتخذوها مسجدا ويصلي فيه يوم الجمعة ما يتراوح بين ٤٠ و٦٠ مصليا.

لمحة عن انهيار الدولة الاسلامية في الأندلس

لكلِّ شيءٍ اذا ما تمَّ نقصانُ
فلا يُغَرُّ بطيب العيش انسان
هيَ الأمورُ اذا شاهدتَها دول
مَنْ سرَّهُ زمن ساءَتْه أَزمانُ
وهذه الدَّارُ لا تُبقْي على أحد
ولا يدومُ على حالٍ لها شانُ
يمزِّق الدَّهرُ حتماً كلَّ سابغة
إذا نَبَتْ مشرفيات وخرصانُ(٣)

لا شك في ان من أهم أسباب زوال الدول وتفرق الشعوب والأمم هو الفتن والخلافات الداخلية والحروب الأهلية، فاذا أضفنا الى ذلك طمع جيرانها بها وجدنا ان الزوال يغدو أشد وأسرع. وهذا لا ينطبق على دولة المسلمين في الأندلس وحسب، وانما على سائر الدول والأمم، في سالف العصر وحاضره.



١ — كاتب المقال بالقرب من بركة مستطيلة ذات نوافير وفي الخلف جانب من آثار جنة العريف.

٢ — النوافير والبرك والزهور والورود والأشجار الوارفة المقصومة على أشكال متنوعة تحيط بالزائر لجنة العريف اينما اتجه.

٣ — أينما اتجهت في جنة العريف وفي الحمراء تشاهد القصور الشامخة والقلاع تكتنفها الأشجار من كل جانب.

تصوير: شيخ أمين



ولما انحصرت دولة المسلمين في غرناطة وما حولها فقط، وتخلى محمد بن الأحمر، عام ٦٦٥هـ ١٢٦٧م، عن كثير من الحصون والقواعد الأندلسية لملك قشتالة، على أثر عقد هدنة بينهما، أخذ القشتاليون، ولما يمض بضع سنوات على عقد الهدنة، بالتحرش بالثغور الاسلامية، ومهاجمتها كلما سنحت الفرصة. ومع ذلك بقيت غرناطة دولة ذات حدود مدة تربو على قرنين من الزمان، تعاورتها خلالها الأحداث الداخلية والنزاعات على السلطة والفتن الأهلية وتحاسد الحكام والأمراء فانقسمت تلك الدولة الصغيرة، الى عدة ولايات ضعيفة ومتفرقة. هذا بالاضافة الى مهاجمة النصارى المستمرة لها، ثم ظهور من يدعو مرة ثانية الى عقد صلح مع أعدائهم، الذين اجتهدوا في الاستيلاء على المدن والقرى والقواعد البعيدة واحدة بعد الأخرى.

وبدأت الأندلس، أو مملكة غرناطة، تتمزق قطعة قطعة، فسقطت «ملقة» بعد حصار شديد أكل أهلها خلاله الجلود وأوراق الشجر، وعجز أميرها عن «انجادها بقواته خوفا من غدر ابن أخيه أمير غرناطة، فترك «ملقة» الى مصيرها وهو يذوب تحسرا وأسى». (٤) ثم سقطت «بسطة» و «المرية» وكذا وكذا، واستنجد أهل الأندلس بأهل المشرق، الذين كانوا يخشون بعضهم بعضا، فلم يجبهم أحد، وازدادت الأحوال سوءا وحوصرت غرناطة، ووقّع أبو عبد الله وثيقة التسليم ودخل القشتاليون الحمراء في الثاني من ربيع الأول ٧٩٨هـ الموافق للثاني من يناير ١٤٩٢م.

وخرج أبو عبد الله من مدينة غرناطة، لكنه بقي في الأندلس حتى اكتوبر ١٤٩٣ حيث غادرها بحرا الى المغرب العربي مع عدد كبير من أعوانه. وهكذا اسدل التاريخ أستاره على دولة المسلمين في الأندلس التي عاشت مايقرب من ثمانية قرون ٧١١—١٤٩٢م.

وبعد استيلاء القشتاليين على تلك البلاد عاش المسلمون كأفراد ورعايا لا حول لهم ولا قوة فترة من الزمن، ثم بدأت أعمال المضايقة والاضطهاد، وأخذ القشتاليون يسومونهم سوء العذاب ويصادرون أملاكهم ويسعون بينهم بالفتن والمؤامرات كي يؤلبوهم على بعضهم البعض. وقد استمر الحال كذلك نحو قرن من الزمن. وفي أوائل القرن الحادى عشر الهجرى، السابع عشر الميلادى، ازدادت أعمال الاضطهاد ضد المسلمين فأخذوا، تحت وطأة هذا الاضطهاد، يغادرون الأندلس في جماعات كبيرة متجهين الى المغرب العربي حيث نزل كثيرون منهم في الرباط وحول نهر أبي رقراق تاركين خلفهم دورهم وقصورهم وشعار بني الأحمر منقوشا في جدرانها... ولا غالب الا الله □

المراجع:
١— نفح الطيب ج ٧/ص ١٧١ والسبيكة: مدرج الى الجنوب الشرقي من الحمراء.
٢— نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين — محمد عبد الله عنان، ص/٢٥٥.
٣— من قصيدة لصالح بن شريف الرندى في رثاء الأندلس.
٤— نهاية الأندلس، ص/٢١٦.

قراءة نقدية في المثل السائر لابن الأثير

بقلم: د. محمد أحمد العزب / المدينة المنورة

يمثل ابن الأثير في تراثنا النقدي القديم علامة بارزة، ويمثل كتابه «المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر» تحولا بالنقد من مجرد رواية الأخبار حول النص واستقصاء حيوات الرجال المبدعين، الى تحديق ذوقي جمالي في نوعية الابداع. وقد عاش ضياء الدين بن الأثير في الفترة من ٥٥٨ — ٦٣٧هـ/ ١١٦٢ — ١٢٣٩م متنقلا بين العراق والشام ومصر ومتقلبا في مناصب وظيفية عديدة، وعاكفا على البحث والدرس والتأليف، حتى أدركته الوفاة في بغداد حين توجه اليها رسولا من جهة صاحب الموصل. وقد كان ضياء الدين بن الأثير أحد اخوة ثلاثة نبغ كل واحد منهم في ميدان من ميادين الدراسات العربية الاسلامية، الا أن ضياء الدين كان أبرز الجميع وأبقاهم في ذاكرة التاريخ بكتابه القيم «المثل السائر». وهو واحد من أبرز الكتب التراثية التي ماتزال قادرة على الرفد والعطاء، بكل مااشتمل عليه من ذكاء الرؤية وموسوعية الثقافة، واحكام التقسيم والترتيب... وقد بناه ابن الأثير، كما يقول: «.. على مقدمة ومقالتين: فالمقدمة تشتمل على أصول علم البيان، والمقالتان تشتملان على فروعه. فالأولى: في الصناعة اللفظية. والثانية: في الصناعة المعنوية..» وتندرج في المقدمة عشرة فصول هي على التوالي: علم البيان، وآلات علم البيان، والحكم على المعاني، والترجيح بين المعاني، وجوامع الكلم، والحكمة التي هي ضالة المؤمن، والحقيقة والمجاز، والفصاحة والبلاغة، وأركان الكتابة، وأخيرا الطريق الى تعلم الكتابة..

أما المقالة الأولى التي تشتمل على الصناعة اللفظية، فتنقسم الى قسمين:

* **اللفظية المفردة**: وفيه يبحث ابن الأثير ما يحتاج اليه صاحب الصناعة في تأليفه، والتفاوت بين الألفاظ، وتباعد مخارج الحروف وتفاوتها، والوحشي من الألفاظ. وتنقسم الألفاظ الى جزلة ورقيقة، والمبتذل من الألفاظ، والألفاظ المشتركة، وعدد حروف الكلمة، وخفة الحركات..

* **الألفاظ المركبة**: وفيه يتناول ابن الأثير أنواع تأليف الألفاظ التي تشمل المسجع والتجنيس والترصيع ولزوم ما لا يلزم، والموازنة واختلاف صيغ الألفاظ واتفاقها. والمعاظلة اللفظية، والمنافرة بين الألفاظ في السبك.. وأما المقالة الثانية التي تختص بالصناعة المعنوية، فيتحدث فيها ابن الأثير عن الكلام على المعاني مجملا، وعن الكلام على المعاني مفصلا، ولكن ابن الأثير يقدم بين يدى الحديث عن هذين القسمين، بتوطئة في معاني الخطابة والشعر والكتابة، ثم يعود الى النظر في تقسيم المعاني مجملا على ضربين، أحدهما يبتدعه مؤلف الكلام من غير أن

يقتدى فيه بمن سبقه. والآخر يحتذى فيه المؤلف على مثال سابق ومنهج مطروق.. والى النظر في تقسيم المعاني مفصلا على أنحاء من الاستعارة والتشبيه والتجريد والالتفات وتوكيد الضميرين وعطف المظهر على ضميره والافصاح به بعده والتفسير بعد الابهام واستعمال العام في النفي والخاص في الاثبات. والتقديم والتأخير والحروف العاطفة والجارة. والخطاب بالجملة الفعلية والجملة الاسمية والفرق بينهما. وقوة اللفظ لقوة المعنى. وعكس الظاهر والاستدراج والايجاز والاطناب.

هذا مجمل عام لأبرز قضايا كتاب «المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر» لابن الأثير. وهو اجمال يتحيف من القيمة الحقيقية لهذا الكتاب الرائد، لأن التأمل المستأني في هذا الكتاب يوقفنا على عديد هائل من القضايا الأدبية والبلاغية والنقدية، بحيث أنه قد تميز بألوان من درس الخصائص المميزة للاساليب الأدبية في ألفاظها ومعانيها وركز في دراسة الأدب على محاور التذوق المباشر للنص، وتحليل النماذج الفنية تحليلا جماليا نقديا وضرورة استيعاب الناقد لعلوم التاريخ والعربية والقرآن والحديث والأخبار والمأثور والحكم والأمثال والشعر والنثر، حتى يكون هذا الناقد على استبصار حقيقي بطبيعة النص المنقود أو القضية المطروحة، وبمقدار ما فيهما من أصالة وتقليد وتعبير عن ملامح المرحلة أو تخل عن هذا التعبير.. كما أن هذا الكتاب قد تميز بنوع من احتواء مقولات التأليف السابقة عليه، واجراء نوعيات من الحوار القابل والرافض من كل منها على السواء.. كما أنه تميز بتكثيف الشواهد التطبيقية على كل ماقدم من قضايا، مستلهما هذه الشواهد من القرآن الكريم والسنة النبوية وماخلف العرب الأصلاء من شعر ونثر.. كما انه تميز كذلك بعقد ألوان من الموازنات بين الشعراء، وبخاصة بين أبي تمام والبحتري والمتنبي، منبها من خلال ذلك الى أنواع السرقات الشعرية وأحجامها جميعا.. كما انه تميز أخيرا بمنهج محدد — وهو مايهمنا هنا بالدرجة الأولى — التزمه المؤلف الا قليلا — وأعطى من خلاله نوعية من التأليف العربي ماتزال ملهمة حتى اليوم لكثير من قيم الأدب والنقد والبلاغة على السواء.

ومنهج ابن الأثير في كتابة «المثل السائر» يدور حول ثلاثة: مزج النظرية بالتطبيق، ومزج البلاغة بالنقد، ومزج النزوع الذاتي في النقد بالنزوع الموضوعي. وذلك كله في عناق شفاف لا يبالغ في جانب على حساب جانب آخر ولا يهدر قيمة لحساب قيمة أخرى.

فهو يضع القاعدة النقدية ويقفي عليها بشواهد من القرآن والشعر، مثلا: فاختيار الألفاظ المفردة أساس من أسس العملية الفنية في الابداع لا يهتدى الى أسرارها الا عارف بصناعة النظم والنثر، ومن عجيب ذلك، كما يقول ابن الأثير: «انك ترى لفظتين تدلان على معنى واحد. وكلاهما حسن في الاستعمال، وهما على وزن واحد وعدة واحدة، الا أنه لا يحسن استعمال هذه في كل موضع تستعمل فيه هذه، بل يفرق بينهما في مواضع السبك، وهذا لا يدركه إلا من دق فهمه، وجل نظره. فمن ذلك قوله تعالى: «**ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه**» وقوله تعالى: «**رب اني نذرت لك ما في بطني محررا**». فاستعمل الجوف في الأولى، و «البطن» في الثانية. ولم يستعمل «الجوف» موضع «البطن» ولا «البطن» موضع الجوف «واللفظتان سواء في الدلالة — وهما ثلاثيتان في عدد واحد ووزنهما واحد أيضا. فانظر الى سبك الألفاظ، كيف تفعل..» وعلى هذا ورد قول الأعرج من أبيات الحماسة:

نحن بنو الموت اذا الموت نزل
لا عار بالموت اذا حم الأجل
الموت أحلى عندنا من العسل

وقال ابو الطيب المتنبي:

اذا مشت حفت على سابح
رجال كأن الموت في فمها شهد

فهاتان لفظتان هما «العسل» و «الشهد» وكلاهما حسن مستعمل لا يشك في حسنه واستعماله. وقد وردت لفظة «العسل في القرآن دون لفظة الشهد، لأنها أحسن منها، ومع هذا فان لفظة «الشهد» وردت في بيت أبي الطيب فجاءت أحسن من لفظة العسل في بيت الأعرج.

وهو يمزج البلاغة بالنقد في عمله النقدي، مثلا: حين يريد تأصيل القضية النقدية الهامة التي تفطن اليها والتي تقول بأن «الفن تخييل»، يقول: «المجاز أولى بالاستعمال من الحقيقة في باب الفصاحة والبلاغة، لأنه لو لم يكن كذلك لكانت الحقيقة التي هي الأصل أولى منه، حيث هو فرع عليها، وليس الأمر كذلك، لأنه قد ثبت وتحقق أن فائدة الكلام الخطابي هو اثبات الغرض المقصود في نفس السامع بالتخييل والتصوير حتى يكاد ينظر اليه عيانا».. ولا يخفى ما في هذه المحاولة التأصيلية لقضية نقدية من حس بلاغي يتعانق في دماثة ووعي وموضوعية، كذلك مع الحس النقدى بلا نتوء ولا اقتسار.

وهو اذا كان قد ركز على أهمية الحسن الذوقي في العملية

النقدية في مثل قوله: «ان الدربة والادمان أجدى عليك نفعا، وأهدى بصرا وسمعا. وهما يريانك الخبر عيانا. ويجعلان عسرك من القول امكانا، وكل جارحة منك قلبا ولسانا» وقوله: «فخذ من هذا الكتاب ما أعطاك. واستنبط بادمانك ماأخطاك. وما مثلي فيما مهدته لك من هذا الطريق الا كمن طبع سيفا ووضعه في يمينك لتقاتل به، وليس عليه أن يخلق لك قلبا، فان حمل النصال غير مباشرة القتال..»

فانه لم يهدر — بهذا التركيز على هذا الجانب التأثري — جانب الحكم الموضوعي في النقد، هذا الجانب الذى يمر من خلال نظرة استقصائية شمولية في النص بدءا من خالقه، ومرورا بعوامل التأثير البيئي واللغوى والتاريخي، وانتهاء الى قيمه الجمالية التي يصبح بها النص الأدبي فنا على الاطلاق.

ولعل ابن الأثير قد جسد فهمه لهذا المنهج المزيج من التأثرية والموضوعية في مطالع كتابه حيث قال: «شيئان لانهاية لهما: البيان والجمال. وعلى هذا فاذا ركب الله تعالى في الانسان طبعا قابلا لهذا الفن، فانه يفتقر حينئذ الى ثمانية أنواع من الآلات وهي معرفة علم العربية من النحو والتصريف، ومعرفة مايحتاج اليه من اللغة وهو المتداول المألوف استعماله في فصيح الكلام غير الوحشي الغريب ولا المستكره المعيب، ومعرفة أمثال العرب وايامهم ومعرفة الوقائع التي جاءت في حوادث خاصة بأقوام فان ذلك جرى مجرى الأمثال أيضا، والاطلاع على تأليفات من تقدمه من أرباب هذه الصناعات المنظومة منه والمنثورة والتحفظ للكثير منه، ومعرفة الأحكام السلطانية في الامامة والامارة والقضاء والحسبة وغير ذلك، وحفظ القرآن الكريم والتدرب باستعماله وادراجه في مطاوى كلامه، وحفظ ما يحتاج اليه من الأخبار عن النبي، صلى الله عليه وسلم، والسلوك بها مسلك القرآن الكريم في الاستعمال، وأخيرا ما يختص بالناظم دون الناثر وذلك علم العروض والقوافي الذى يقام به ميزان الشعر.

بل انه لا يكتفي بهذه المعارف فيقول: «وها هنا أشياء أخر هي كالتوابع والروادف. وبالجملة فان صاحب هذه الصناعة يحتاج الى التشبث بكل فن من الفنون، حتى انه يحتاج الى معرفة ماتقوله النادبة بين النساء، والماشطة عند جلوة العروس، والى مايقوله المنادى في السوق على السلعة. فما ظنك بما فوق هذا؟ والسبب في ذلك أنه مؤهل لأن يهيم في كل واد. فيحتاج أن يتعلق بكل فن».

وهكذا تضعنا هذه الشروط النقدية أمام نظرية مزيج من الذاتية والموضوعية يؤمن بها ابن الأثير، وتضعنا كذلك أمام أساسيات لازمة ليس للفنان وحده وليس للناقد وحده. وانما للكاتب والناقد جميعا.

فكما أن الفنان مطالب — بعد احتيازه لملكة الابداع — باستظهار علوم عصره ومعارفه حتى يكون عطاؤه الفني مليئا بروح العصر. فكذلك الناقد مطالب هو الاخر — بعد احتيازه لملكة النقد — باستظهار كل علوم عصره ومعارفه، بل كل علوم العصور ومعارفها، حتى تكون رؤيته النقدية أكثر استبصارا، وأشمل نفاذا وأدق تعبيرا.

وقد يكون ابن الأثير، في مناداته بأن يعي الفنان والناقد حركة الحياة اليومية ومفرداتها الساذجة، ومن أمثال ماتقوله «النادبة بين النساء» و «الماشطة عند جلوة العروس» و «المنادى في السوق على السلعة»، واحدا من أوائل الرواد في حركة النقد العربي الذين وجهوا اهتماماتهم النقدية الى حتمية ربط الفن بالحياة. والنزول بالابداع الفني من برجه المعاجي الى جدل الواقع اليومي ليكون أقدر على استنطاقه واستلهامه وتصور صراعه الحياتي، في أدب يكون موازيا للحياة وليس موازيا للنماذج الميتة، ويكون ابداعا وابتكارا وحيوية وليس مسخا واحتذاء وتكرارا.

ولكننا يجب أن لا نغالي في دعوى التزام المنهج أو دعوى تبشير ابن الأثير بنظرية «الفن للحياة» فقد تردد الكتاب أحيانا كثيرة على البلاغة والنقد والأدب في غير منهجية واضحة، وحشد نقولا كثيرة للمؤلف ولغير المؤلف تخرج بالاستشهاد عن طبيعته المقتصدة الى محاولة تكثيف المنقول دون حاجة لازمة اليه. لذلك تردد الكتاب على مقولات كثيرة تقلص من مد الأدب في محيط الحياة العادية ليظل حبيس الانتخاب والانتقاء والوقوع على المعنى المتعالي الذى لا يباشر فعله الفني الا من خلال علاقات مجردة هي علاقات لغوية توشك أن يكون بحتة.

الا أننا نكفكف من حدة هذه الملاحظة حين نقرر أن ابن الأثير ليس وحده من بين المؤلفين القدامى في هذا الاتجاه الخالط، وربما كان هو واحدا من أبرز من نأوا بأعمالهم عن الوقوع الكامل في هذا الخلط، حتى يمكن أن يقال أن عمله أقرب أعمال السلف، في بابه، الى التزام المنهجية الواضحة وطرائق البحث العلمي الرصين، والى محاولة عقد صلح نقدى بين الفن من جهة ومفردات الواقع اليومي من جهة أخرى. وهذا وحده يعفي صاحبه من أن تظلمه أحكامنا الجازمة في هذا الصدد أو ذاك.

ولابن الأثير في كتابه «المثل السائر»، نظر ثاقب في تحديد الماهيات وتجسيد التعاريف وتقسيم الأقسام. ويوشك كتابه في كل خطوة من خطواته أن يكون تنويعا على هذا الأساس المنهجي:

التعريف والتقسيم وتحديد الماهيات. فحين يتعرض لمفهوم علم البيان يقول «.. وعلى هذا فموضوع علم البيان هو الفصاحة والبلاغة. وصاحبه يسأل عن أحوالها اللفظية والمعنوية، وهو والنحوى يشتركان في أن النحوى ينظر في دلالة الألفاظ على المعاني من جهة الوضع اللغوى، وتلك دلالة عامة؛ وصاحب علم البيان ينظر في فضيلة تلك الدلالة وهي دلالة خاصة، والمراد بها أن تكون على هيئة مخصوصة من الحسن، وذلك أمر وراء النحو والاعراب. ألا ترى أن النحوى يفهم معنى الكلام المنظوم والمنثور، ويعلم مواقع اعرابه ومع ذلك فانه لا يفهم مافيه من الفصاحة والبلاغة، ومن هنا غلط مفسرو الأشعار في اقتصارهم على شرح المعنى ومافيه من الكلمات اللغوية. وتبين مواضع الإعراب منها، دون شرح ماتضمنته من أسرار الفصاحة والبلاغة. وحين يتصدى للحكم على المعاني بين حمل المعنى على ظاهر لفظه، أو العدول عن ظاهر اللفظ الى التأويل، يستطرد الى تحديد الفرق بين طبيعة «التفسير» و «التأويل» فيقول: «التفسير يطلق على بيان اللفظ حقيقة ومجازا، لأنه من «الفسر» وهو الكشف كتفسير الرصد في الآية المشار اليها» يعني قوله تعالى: «**ان ربك لبالمرصاد**» وتفسيره بالتحذير من تعدى حدود الله ومخالفة أوامره. وأما التأويل فانه أحد قسمي التفسير، وذاك انه رجوع عن ظاهر اللفظ، وهو مشتق من الأول، وهو الرجوع، يقال: آل يئول اذا رجع. وعلى هذا فان التأويل خاص والتفسير عام، فكل تأويل تفسير، وليس كل تفسير تأويلا، ولهذا يقال: تفسير القرآن، ومن تفسيره ظاهر وباطن... وتأويل المعنى إما أن يفهم منه شيء واحد لا يحتمل غيره. وإما أن يفهم منه الشيء وغيره وتلك الغيرية اما أن تكون ضدا، أو لا تكون ضدا.

ويوشك ابن الأثير أن يتفطن الى ملامح نظرية في البناء الشعرى في مقالته الأولى عن «الصناعة اللفظية» وذلك من خلال تركيزه على أن القاموس الشعرى «بما هو مفردات» لا يشكل الا الجانب الأولي من تجربة التأليف في الشعر أما الجانب الصميمي فهو عملية «البناء» و «التركيب» بحيث يظهر في جلاء أن عملية تصميم اللغة على نحو معين هو جوهر الشعر، وان الانحراف بالتركيب اللغوى عن وضعه المنطقي المقصود به الى «الافهام» الى وضعه الخارق المقصود به الى «الجمال» هو لب القضية الشعرية وأساسها... وقد أوشك ابن الأثير أن يتفطن بالفعل الى هذه القضية الهامة في حديثه عن «تفاوت التفاضل» وكيف يقع في «تركيب الألفاظ أكثر مما يقع في مفرداتها». «لأن التركيب أعسر وأشق» لولا أنه كان يلقي بالمثال والحكم النقدى ويتركنا أمامها كأنها من القضايا المسلمة التي لا تحتاج الى معاناة تأمل أو معاناة تحديد ولولا أنه ركز كذلك في الاستشهاد على القضية من خلال الواقع التركيبي في القرآن الكريم وليس من خلال الواقع التركيبي في الشعر العربي، مما أضعف من قيمة الاحساس بأنه يقصد الى نظرية في التركيب الشعري، وليس الى نظرية في مجرد التركيب.

ومما لا شك فيه أن ابن الأثير في كتابه «المثل السائر» حقق لنفسه نوعا من الحلول الشخصي في التأليف، بحيث ظلت صورته ماثلة على صفحات الكتاب لا تغيب فهو يستعرض في تقرير قضاياه آراء الغابرين والمعاصرين له، ثم يجرى مع كل هذه الآراء حوارا فكريا وذوقيا بالغ الرهافة والموضوعية. ليخلص في النهاية برأى يكون قد ارتضاه لنفسه، ربما يشايع بعض هذه الآراء، وربما يصادم بعضها الآخر، ولكنه يحمل في آخر الأمر ملامح شخصية ابن الأثير وطابع تفكيره واقتناعه. وقد أعانه على ذلك، بلا ريب ، أنه لم يكن مجرد حاطب لمقولات التراث في الأدب والبلاغة والنقد، ولكنه كان فنانا مبدعا الى جوار كونه ناقدا بصيرا، وقد سلحه هذا الحس الفنان بنوع من البصيرة النقدية النافذة، فعانق تجربة الابداع في النثر والشعر من الداخل، ولم يلامسها مجرد ملامسة من السطح، وهذا هو الذى أضاف الى عمله النقدى قيمة الاستبصار بعالم النص الداخلي بما هو تجربة فنان خاض تجارب الابداع، وأحسها هو من هذا المنظور المثير.

واذا كان كتاب ابن الأثير «المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر» يحمل كل هذه المعطيات النقدية والفنية والبلاغية، من درس لخصائص المعنى وخصائص الأسلوب، الى شمول الثقافة وعمق الاستبصار، الى تحديد منهج تتعانق فيه النظرية والتطبيق والبلاغة والنقد، والذات والموضوع.. الى كدح وراء تطبيق المقولات الابداعية على القاعدة النظرية، الى طموح لتأصيل اتجاه يربط الفن بالحياة، الى محاولة لتحديد الماهيات وتجسيد التعاريف وتقسيم الأقسام، الى تفطن نافذ لنظرية في الشعر توشك الآن أن تكون أحدث نظريات النقد المعاصر. الى بروز الشخصية واستقلالها في كل مراحل العمل النقدى الذى قام به وتصدى له.. الى غير ذلك مما يحمل الكتاب صوته الرائع ووجهه الحقيقي، وهو كثير كثير بلا حدود.. اذا كان كتاب ابن الأثير يحمل كل هذه المعطيات، فحسب ذلك تدليلا على جدارته أن يظل واحدا من أروع الاعمال التراثية في الفكر العربي الرصين. □

أخبار الكتب

* أصدر معالي الشيخ حسن بن عبدالله آل الشيخ كتابا عن «التنظيم القضائي في المملكة العربية السعودية» نشر في سلسلة «الكتاب العربي السعودي».

* ومن الكتب التي تعالج جوانب شتى من المملكة العربية السعودية صدر ما يلي: «كيف كان ظهور الشيخ محمد بن عبد الوهاب» لمؤلف مجهول وقد حققه الدكتور عبد الله الصالح العثيمين وصدر عن دارة الملك عبد العزيز. و«عنوان المجد في تاريخ نجد والكويت» للشيخ عثمان بن عبد الله بن بشر النجدي الحنبلي وقد حقق الاستاذ عبد الرحمن ابن عبداللطيف بن عبدالله آل الشيخ جزأه الثاني وصدر عن الدارة. و«الأدب السعودي المعاصر في الكتب المدرسية» للاستاذ محمود رداوي وصدر عن النادي الأدبي بالرياض. و«عبدالله الفيصل: حياته وشعره» للأديبة منيرة العجلاني ونشر السعودية. و«بلاد الحجاز منذ بداية عهد الاشراف حتى سقوط الخلافة العباسية في بغداد» للدكتور سليمان عبد الغني المالكي ونشر الدارة.

* من كتب التراث التي حققت أخيرا «النور اللائح والدر الصالح» للقيسراني وقد حققه الدكتور عمر عبد السلام تدمري ونشرته دار الانشاء في طرابلس — لبنان. و«القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية» لمحمد بن طولون الصالحي وقد حققه في قسمين الاستاذ محمد أحمد دهمان وصدر عن مجمع اللغة العربية بدمشق.

* صدرت طبعة جديدة من كتاب «أنا» وهو سيرة الأديب الكبير الراحل عباس محمود العقاد وقد نشرته دار المعارف.

* ومن كتب السير والتراجم التي نشرت أخيرا «الفارابي» للاستاذ سعيد زايد ونشر دار المعارف. و«الشيخ ابراهيم الأحدب» للدكتورة زينب القاروط ونشر دار الانشاء بطرابلس — لبنان. و«الشنفرى شاعر الصحراء الأبي» للدكتور محمود حسن أبو ناجي. و«الأمير عبد القادر رائد الكفاح الجزائري» للدكتور يحي بوعزيز ونشر الدار العربية للكتاب. و«المسعودى» للدكتور علي حسني الخربوطلي ونشر دار المعارف. و«الشيخ حسين الجسر» للدكتورة خالدة زيادة ونشر دار الانشاء. و«أحاديث عن مي زيادة وأسرار غير متداولة من حياتها» للاستاذ عمر حمادة وطبع دمشق. و«عالم اللغة الجرجاني» للدكتور البدراوي زهران ونشر دار المعارف.

* دراستان عن الرواية العربية في الشمال المغربي صدرتا أخيرا هما «الرواية والايديولوجيا في المغرب العربي» للاستاذ سعيد علوش ونشر دار الكلمة. و«الرواية العربية الجزائرية الحديثة بين الواقعية والالتزام» للدكتور محمد مصايف ونشر الدار العربية للكتاب.

* وفي الدراسات الأدبية صدرت الكتب الآتية: «السمات الحضارية في شعر الأعشى» للأديبة زينب عبد العزيز العمري ونشر دارة الملك عبد العزيز. و«قراءة نقدية في الشعر المعاصر» للدكتور صابر عبد الدايم ونشر مكتب منرفا بالزقازيق. و«حول مفهوم النثر الفني عند العرب القدامى» للاستاذ البشير المجدوب ونشر الدار العربية للكتاب. و«الأمثال الغربية ومصادرها في التراث» للاستاذ حمد أبو صوفة وطبع الأردن. و«حول أزمة التراث العربي الاسلامي» للاستاذ أحمد الصادق مبارك. و«دراسات في الأدب الكلاسيكي الألماني» للدكتور عدنان رشيد ونشر دار العلوم بالرياض. و«ثلاثيات ثقافية» للاستاذ احمد الحمدوني ونشر مجلة «الأخلاء» التونسية.

* كتابان من كتب الخواطر صدرا أخيرا. أولهما للأديب اللبناني الأستاذ رياض حنين وعنوانه «الوجه الآخر» وقد نشرته دار النهار. وثانيهما للأديب التونسي الاستاذ السيد محمد محسن الجليطي وعنوانه «البحر وهمسات السنين» وقد نشرته مؤسسة سعيدان في سوسة.

* أحدث دواوين الشعر الصادرة في المملكة العربية السعودية هما ديوان «قلب على الرصيف» للشاعر احمد سالم باعطب وقد نشرته دار الرفاعي بالرياض. وديوان «عذاب البوح» للشاعر عبد العزيز محي الدين خوجة.

* ومن الدواوين الجديدة التي صدرت في العالم العربي. ديوان «مذكرات شاعر» لشاعر البحرين الكبير ابراهيم العريض وقد صدر في البحرين. و«بين الجد والجيد» للشاعر اسماعيل سرى الدهشان «وهو من جماعة أبولو» وقد صدر عن الهيئة المصرية العامة للكتاب» و«كتابات على حائط الليل» للشاعر التونسي عبدالله مالك القاسمي وقد نشرته مجلة «الأخلاء» و«غزلان الدم» للشاعر العراقي خيري منصور وقد صدر عن وزارة الثقافة العراقية. و«المسافر في سنبلات الزمن» للشاعر المصري الدكتور صابر عبد الدايم. و«هذا الكون مقبرتي» للشاعر السوري خيري عبد ربه ونشر دار الوحدة في دمشق. ومجموعة شعرية عنوانها «لغة الأغصان المختلفة» اشترك فيها الشعراء التونسيون الحبيب الهمامي وكمال قداوين وعبد الله مالك القاسمي ويوسف رزوقة والصادق شرف وطبعت في تونس.

* صدرت دراسة كبيرة عن «مجمع اللغة

أخبار الكتب

العربية» بالقاهرة أعدها الدكتور عبد المنعم الدسوقي الجميعي ونشرتها الهيئة المصرية.

* طائفة من الكتب التي تتناول موضوعات علمية منوعة صدرت أخيرا، منها «العلم في فنجان» للمهندس سعد شعبان ونشر دار المعارف في «سلسلة اقرأ»، و«النشاط العلمي والفكري للمهاجرين الجزائريين بتونس ١٩٠٠ — ١٩٦٢» للدكتور محمد صالح الجابري ونشر الدار العربية للكتاب، و«الاسعاف قبل الطبيب» للدكتور ابراهيم قطامش ونشر دار أخبار اليوم.

* من كتب الدين التي نشرت مؤخرا «مائة سؤال عن الاسلام» و«هموم داعية» وكلاهما للشيخ محمد الغزالي ونشر دار الشروق، و«الحروف المقطعة في القرآن الكريم» للاستاذ عبد الجبار محمد حسين شرارة ونشر مطبعة الارشاد، و«الى القرآن الكريم» للعلامة الراحل الشيخ محمود شلتوت ونشر دار الهلال، و«مع القرآن الكريم في دراسة مستلهمة» للمرحوم الاستاذ على النجدي ناصف ونشر دار المعارف، و«وفي أنفسكم أفلا تبصرون» للدكتور محمد رشاد الطوبي وقد نشر في سلسلة «اقرأ».

* في الأدب الروائي بفنونه المختلفة صدرت مجموعة من الكتب منها «عائشة» وهي رواية من تأليف الأستاذ البشير بن سلامة ونشر تونس، و«حليمة» وهي رواية نشرت في تونس أيضا للأستاذ محمد العروسي المطوي، و«وداع يوم دافىء» وهي رواية للاستاذ علاء مصطفى ونشر دار أخبار اليوم، و«زهرة أندلسية» وهي رواية للاستاذ كمال خيرالله بمقدمة للدكتور عبد العزيز شرف وتوزيع الأهرام، و«السجين» وهي رواية لكلود افلين وترجمة الاستاذ مصطفى كامل فودة ونشر دار المعارف، و«المنحنى الخطر» وهي مجموعة أقاصيص للاستاذ خيري شلبي ونشر دار الهلال، و«حصاة في نهر» وهي أقاصيص للأستاذ محمد كمال محمد ونشر الهيئة المصرية، و«النواشي» وهي أقاصيص للاستاذ محمد مزيد ونشر وزارة الثقافة العراقية، ومسرحيتا «أفيجينيا في أوليس» و«أفيجينيا في تاوريس» ليوروبيدس وترجمة الاستاذ اسماعيل البنهاوي ومراجعة الدكتور احمد عثمان ونشر سلسلة «من المسرح العالمي» الكويتية.

* «نزهة العيون» عنوان كتاب عن الفنون التشكيلية صدر للدكتور نعيم عطية في سلسلة «اقرأ».

* صدر للأديب الكويتي عبدالله زكريا الأنصاري كتابا جديدا عنوانه «حوار في مجتمع صغير» وقد خرج في منشورات ذات السلاسل بالكويت.

* صدر للدكتور جواد علي كتاب «تاريخ العرب في الاسلام» وقد نشرته مكتبة النهضة ببغداد.

* «مغامرة العقل الأولى» عنوان دراسة في أساطير سورية وبلاد الرافدين صدرت للاستاذ فراس سواح من نشر دار الكلمة.

* صدر للدكتور عبدالله الأشعل كتاب «الاطار القانوني والسياسي لمجلس التعاون الخليجي».

* أعلنت دائرة المعارف البريطانية أن الوقت قد حان لاصدار ترجمة عربية لأحدث طبعات دائرة المعارف بعد اضافة نحو مليون كلمة اليها للتوسع في تناول الموضوعات التي تتصل بالتراث والتاريخ الاسلامي العربي. وسيستعان في بعض مراحل عملية الترجمة بأجهزة الكمبيوتر التي تستعين بها هيئة اليونسكو في بعض ترجماتها. وقد اختيرت باريس مقرا لترجمة الطبعة العربية من هذه الموسوعة واصدارها ثم توزيعها عند الفراغ من طبعها في غضون عامين.

* صدرت عن مجمع اللغة العربية بدمشق طبعة ثانية منقحة من كتاب «الثقافة الاسلامية في الهند: معارف العوارف في أنواع العلوم والمعارف» للراحل عبد الحيّ الحسني وقد راجعه وقدم له الأستاذ أبو الحسن علي الحسني الندوي. ومما يذكر أن للشيخ عبد المنعم النمر كتابا كبيرا عنوانه «تاريخ الاسلام في الهند» صدر عن الهيئة المصرية العامة للكتاب منذ سنوات.

* صدرت للشيخ أحمد حسن الباقوري أخيرا ثلاثة كتب هي «أثر القرآن الكريم في اللغة العربية» وقد نشرته دار المعارف، والجزء الثاني من «قطوف من أدب النبوة» وكتاب «الأسرة في الاسلام» وهما من نشر دار أخبار اليوم.

* من المخطوطات التي خلفها الأديب الشاعر الراحل الدكتور أحمد زكي أبو شادى دون أن تطبع، كتابان اسلاميان هما «الاسلام في نقائه» و «أحاديث اسلامية» وتجرى الآن محاولات لتجميع فصول هذين الكتابين واخراجها. وسبق له في حياته أن نشر كتابا عنوانه «لماذا أنا مسلم». ومما يذكر أن الأديب الراحل رضوان ابراهيم سبق له أن جمع كتابين للدكتور أبي شادى ونشرهما فعلا هما «الاسلام الحيّ» و «عظمة الاسلام».

* الأديب الشاعر الأستاذ مصطفى علي عبد الرحمن أصدر كتابا عنوانه «رمضانيات»

أخبار الكتب

فيه طرائف وحكايات وقصائد استوحيت من شهر الصوم العظيم لأدباء وشعراء في القديم والحديث. وقد نشر الكتاب في سلسلة «اقرأ» لدار المعارف.

* «الاسلام والشعر» عنوان دراسة أدبية جديدة صدرت للدكتور سامي مكي العاني في سلسلة «عالم المعرفة» الكويتية.

* من الكتب الاسلامية التي أصدرتها دار المعارف «مهذّب السيرة النبوية» للأستاذ ابراهيم الابياري، و شموس العرفان بلغة القرآن» للأستاذ عباس أبو السعود، و «كنوز الحكمة» للأستاذ السيد أبو ضيف المدني، و «سبحان الله» للدكتور كامل سعفان، و «مفاهيم تربوية في الاسلام» للدكتور محمود السيد سلطان، ونشرت دار أخبار اليوم بدورها كتبا اسلامية هي: الطبعة الثانية لكتاب «أئمة الفقه التسعة» للأستاذ عبد الرحمن الشرقاوى الذى يظهر له كتاب جديد عن «الامام علي »، والجزء الخامس من «معجزة القرآن» للشيخ محمد متولي الشعراوى، و «الكعبة المشرفة ومناسك الحج والعمرة» للسيدة أمينة الصاوي. كما نشرت الهيئة المصرية كتاب «الاطار الاخلاقي لمالية المسلم» للأستاذ قطب ابراهيم محمد.

* يعد الأديب العراقي الأستاذ جعفر الخليلي دراسة أدبية تاريخية عن حواضر العراق.

* صدر للأديب المغربي الأستاذ عبد العزيز بن عبد الجليل كتاب «مدخل الى تاريخ الموسيقى المغربية» وقد نشر في سلسلة «عالم المعرفة» الكويتية.

* صدرت للأستاذ نجيب محفوظ رواية «ليالي ألف ليلة» وهي تكييف جديد لهذا الكتاب القديم. ونشرت الرواية مكتبة مصر. وفي الوقت عينه تصدر للأديب الشاعر الأستاذ طاهر أبو فاشا سلسلة من الكتب عنوانها «ألف يوم ويوم» وهي بدورها مستوحاة من «ألف ليلة» وان كان شهر زاد وشهريار قد عكسا دوريهما، فأصبحت شهر زاد هي المستبدة وشهريار هو المستكين.

* صدرت للأديب جمال الغيطاني رواية طويلة عنوانها «كتاب التجلّيات» نشرتها دار المستقبل العربي.

* الحلقة الجديدة في سلسلة «رواد ومشاهير» التي يصدرها الدكتور رؤوف سلامة موسى عن دار ومطابع المستقبل تتناول حياة «لورنس العرب» وهو الشخصية صاحبة الأطوار الغريبة. وتصدر قريبا في هذه السلسلة حلقة عن الشاعر عبد الرحمن شكرى.

* صدر للأديب الصحفي الراحل الأستاذ محمد زكي عبد القادر كتاب «مذكرات وذكريات» وهو يسجل فيه تاريخ حقبة من الحياة عاشها وعاصرها. وقد نشرت الكتاب دار أخبار اليوم.

* صدر كتابان جديدان في علوم الادارة، هما «الادارة التعليمية» للدكتور محمد منير مرسي ونشر عالم الكتب أو «العلوم السلوكية في مجال الادارة والانتاج» للدكتور عبد الحميد مرسي ونشر مكتبة وهبة. كما صدر كتاب عن «الادارة المنزلية الحديثة» للدكتورة كوثر حسين كوجك ونشر عالم الكتب.

* من الكتب الأدبية التي صدرت عن دار المعارف أخيرا هذه الطائفة: «تجديد النحو» للدكتور شوقي ضيف، و «النحو الوظيفي» للأستاذ عبد العليم ابراهيم، و «مقالات في النقد الأدبي» للدكتور ابراهيم حمادة، و «المسرح الايطالي» للأستاذ سعد أردش.

* نشرت دار الشروق طبعة جديدة من الدواوين الأربعة للشاعر الراحل الدكتور ابراهيم ناجي وهي «وراء الغمام» و «ليالي القاهرة» و «الطائر الجريح» و «معبد الليل».

* أحدث ماصدر من دواوين الشاعر الأستاذ حسن كامل الصيرفي هو ديوان «نوافذ الضياء» وقد نشرته دار المارف.

* من الكتب التربوية التي صدرت حديثا كتاب «تدريس المواد الاجتماعية» للدكتور أحمد حسين اللقاني، وكتاب «مناهج علم الاجتماع» للدكتور صلاح الفوّال، و «التربية والتقدم» للدكتور سعد مرسي أحمد وكلها نشر عالم الكتب.

* «علم الاجتماع والعلوم الاجتماعية» عنوان كتاب للدكتور صلاح الفوّال نشرته مكتبة عالم الكتب.

* في الشعر الكويتي صدر ديوانان جديدان هما «تحولات الأزمنة» للدكتور خليفة الوقيان ونشر دار العروبة، و «أغاني التراب» للأستاذ فيصل السعد ونشر شركة الربيعان.

* مسرحية «الآنسة روزيت العانس أو لغة الزهور» للأديب الاسباني فديريكو غرسيه لوركا ترجمها الى اللغة العربية الاستاذ ماهر البطوطي وراجعها الدكتور يوسف الحشاش، ونشرت في سلسلة «من المسرح العالمي» الكويتية.

* يعني اتحاد المصارف الاسلامية باصدار كتب تتناول جوانب مختلفة من المشكلات المعاصرة في ضوء الاسلام. وقد صدر عنه أخيرا كتاب «الحل الاسلامي لأزمة الادارة في العصر الحديث» من تأليف الدكتور حسن العناني والأستاذ جمال البنا وتقديم الدكتور أحمد النجار

كتب مهداة

حظيت مكتبة القافلة مؤخرا بهذه الطائفة من المؤلفات الأدبية والتربوية والثقافية :

* «مبادىء الاحصاء» للدكتور جلال الصياد والاستاذ عادل سمرة، ويتناول الكتاب موضوع الاحصاء كأداة للبحث والدراسة العلمية المنظمة، وهو يتضمن المبادىء الأساسية لعلم الاحصاء في أسلوب مبسط ليسهل فهمه على طلاب الدراسات الاقتصادية والادارية، ويقع هذا الكتاب في ٢٢١ صفحة من القطع المتوسط، وقد صدر عن تهامة للنشر ضمن سلسلة الكتاب الجامعي □



* «الذكرى النافعة في كلمة جامعة» للاستاذ حامد المحضار. وهو عبارة عن قصيدة من ١٥٥ بيتا. وضع لها المؤلف مقدمة من نحو ٣٠ صفحة للتعريف بالقصيدة ومراميها الدينية والاجتماعية الهادفة. والكتاب من اصدارات الدار السعودية للنشر والتوزيع □



* «لا سلام مع السلاح»، للاستاذ خالد مصباح مظلوم، وهو ديوان شعر يضم ٤٩ قصيدة ذات أهداف اجتماعية متنوعة. ويقع في ١٥٢ صفحة وقد صدر عن الدار السعودية للنشر والتوزيع □



* «لن تلحد» للاستاذ أبي عبد الرحمن بن عقيل الظاهرى. وهو كتاب ديني صدر ضمن سلسلة الكتاب العربي السعودى، ويقع في ٣٤٠ صفحة. وقد أراد مؤلفه أن يرسي في نظرية المعرفة وتقريب سبيل الوعي بالايمان. والكتاب من اصدارات تهامة □



* «تهجيت حلما.. تهجيت وهما» للاستاذ محمد الثبيتي وهو ديوان شعر يقع في ١٠٧ صفحات تضم ١٤ قصيدة معظمها في الغزل والنسيب □



* من تأليف الدكتور جلال الصياد والدكتور عبد الحميد محمد ربيع، صدر كتاب «مبادىء الطرق الاحصائية» ويتناول مبادىء طرق تحليل البيانات أو مايسمى بالطرق الاحصائية والاستدلال الاحصائي، باستخدام نظرية الاحتمالات بطريقة مبسطة، ويقع الكتاب في ٢٠٥ صفحات من القطع المتوسط، وهو من اصدارات تهامة للنشر ضمن سلسلة الكتاب الجامعي □



* «خيار التصنيع» للدكتور محسون جلال. وهو عبارة عن كتيب يقع في ٦٢ صفحة، قسمه المؤلف الى أربعة فصول هي: مقومات الانطلاق الصناعي، التصنيع كخيار وطني، أهداف الخيار، التصنيع الوطنية. وهو من اصدارات الدار السعودية للنشر والتوزيع □



من حصاد الكتب :

أثر الأدب العربي في الأدب الانكليزي

بقلم : س أبو زورث
استاذ الدراسات العربية في جامعة مانشستر
ترجمة : محمود منقذ الهاشمي

ترجمة

قصة تأثير الأدب العربي في الأدب الانكليزي الى أواخر العصور الوسطى، مع ملاحظة أنه ليس من اليسير علينا عزل الأدب العربي على وجه التخصيص عن التأثيرات الاسلامية وتأثيرات الشرق الأدنى العامة التي بدأت تظهر في الغرب آنذاك. وكانت أعظم سلطتين في الشرق الأدنى في القرن الرابع عشر تركيتي العرق، من المماليك في مصر وسورية (الذين كانت ثقافتهم في أساسها عربية على نحو لا سبيل لانكاره) ومن العثمانيين في الأناضول والبلقان. ولم يكن للغربيين غير فكرة غائمة للغاية عن الفارق بين العرب والبربر والأتراك. فقد كانت الأطراف تتبادل المواضع على نحو واسع في عقول معظم الناس.

وعلى أية حال، فان التعرف الى الأعمال العربية الخاصة قد أخذ سبيله الى انكلترا في أواخر العصور الوسطى. وبالرغم من أنه قد تم في الدرجة الأولى عبر اللغات والثقافات الأوروبية الأخرى، التي ازدهرت على حوض البحر الأبيض المتوسط (١). كالاسبانية والايطالية والفرنسية. ونهض أول اهتمام بالسمات المتألقة للأدب العربي، ولا سيما بما فيه من «أدب» (٢) ومجموعات عديدة من الحكايات الشعبية العربية. فعرف شيء من التثقيف وشيء من التسلية الصافية طريقها الى الغرب. وكانت أقنية الانتقال ممتدة من شبه الجزيرة الايبارية (٣) والدويلات الصليبية في الشرق في الفترة الأولى. ثم من المحطات التجارية في شرقي البحر الأبيض المتوسط وشطآن البحر الأسود في الفترة اللاحقة. وفي حكاية «حامل الدروع» لـ «تشوسر» نقرأ الافتتاح:

في «سراي» ببلاد التتار (٤)
أقام ملك حارب روسيا

وهذه الاشارة الى عاصمة «القبائل الذهبية» في روسيا الجنوبية يجب أن تعيدنا الى محطات الجنويين في كريمي. ومن جانب آخر فقد نقلت الكتابة الأكثر جدية، كالكتابة في العلم، والطب، والفلسفة، وما الى ذلك، التراث الاغريقي الكلاسيكي الى الغرب عبر قناة أشد منهجية واعتمادا على العلم، هي قناة الترجمة من العربية الى اللاتينية، ومن ثم الى اللغات الوطنية. وخلال ذلك الزمن كتب تشوسر «حكايات كانتربري» (زهاء ١٣٨٦ — ١٣٨٩). وقد قال عن الطبيب فيها:

تعرف جيدا الى أسكولابيوس القديم وروفوس،
وديسكوريدس، وابن رشد، والدمشقي،
وقسطنطين،
وأبقراط القديم، وهالي، وغالين، وغاتسدن،
وجلبرتين.

وكانت مجموعة القصص العربية الشهيرة «كتاب السندباد» قد ذكرت أول ماذكرت في القرن العاشر في «مروج الذهب» للمسعودي، وظهرت في الغرب أول مرة في العصور الوسطى، رغم أن تاريخها اللاحق ينتمي الى تأثر الأدب الانكليزي بـ «ألف ليلة وليلة» التي عالجت موضوعها في مكان آخر. وفي عام ١٠٥٣ جمع الكاتب المصري «مبشر بن فاتك» (٥) أقوال فلاسفة الشرق الأدنى والاغريق من أمثال (هرمس، وهوميروس، وأسكولا بيوس، وسولون وأفلاطون، وأرسطو، وسواهم) في كتابه «مختار الحكم ومحاسن الكلم» الذى ترجم الى الاسبانية واللاتينية، وعرف طريقه الى انكلترا في القرن الخامس عشر بواسطة الترجمة الفرنسية عن اللاتينية بعنوان «املاء الفلاسفة وأقوالهم» وقد قام بترجمته «أنطوني وودفيل» و «ايريل ريفرز» وطبعه «وليم كالكستون» في عام ١٤٧٧ وهو أول كتاب قام باصداره. وأشهر الحكايات الشرقية كافة هو الكتاب المعروف بـ «كليلة ودمنة» وفي الغرب بـ — «خرافات بيدبا»، الا أن العودة الى الأصل الهندى القديم «بانشاتانترا» مرورا بالترجمة العربية التي قام بها ابن المقفع والترجمة الفارسية، تواجه من الاختلاف ما تواجهه العودة الى الترجمتين الاسبانية واللاتينية في أوروبا الغربية، بعد فترة قصيرة من الترجمة التي قام بها «دوني» الايطالي في منتصف القرن السادس عشر، حيث ظهرت أول الترجمات الانكليزية وهي الترجمة التي قام بها توماس نورث بعنوان «فلسفة دوني الخلقية».

كانت مثل هذه اللمحات التي أطلت من الأدب العربي على انكلترا في القرون الوسطى وعصر النهضة محدودة المدى، وكانت وجها من وجوه البزوغ البطيء لفهم الدين الاسلامي، وكانت قد نشرت في عام ١٦٤٩ ترجمة هزيلة وعسيرة الفهم للقرآن الكريم قام بها الاسكوتلاندى الكسندر روس وهي ترجمة الترجمة الفرنسية للسيد أرنه دوريه، ولكن الترجمة التي تفوقها بكثير والمترجمة عن العربية مباشرة قد ظهرت في عام ١٧٣٤ بفضل جورج سال، الذى كان ذا معرفة تامة باللغة العربية في سورية حيث كان قسا من جماعة المشرق، والذى كان قادرا على القيام بالشرح الوفير الذى من شأنه أن تفهم ترجمته فهما أفضل مستعينا على ذلك بـ «أسرار التنزيل» (٦) للبيضاوى و «تفسير الجلالين» للسيوطي. ولكن بالرغم من أن القرآن الكريم قد تيسر للانكليز

بلغتهم"، فانه لا يمكن القول بأن له أى تأثير لا حق في الأدب الانكليزى، كما كان للكتب المقدسة الهندية والبوذية عندما ترجمت من لغات كالسنسكريتية والبالية في القرن التاسع عشر

والحق أن أول معرفة مباشرة بالأدب العربي في بريطانيا تؤرخ في منتصف القرن السابع عشر، عندما اعتلى المنبر في جامعتي كمبريدج واكسفورد جيل من الباحثين البارزين الرواد حيث أوجدت مقاعد الأستاذية في اللغة العربية سنة ١٦٣٠. وأصاب ادوارد بوكوك (١٦٠٤ — ١٦٩١) معرفة طيبة باللغة العربية في حلب، باعتباره قسا ملحقا بمحطة ضيوف الشرق. وعندما أصبح أستاذا دينيا للعربية سنة ١٦٣٦، ألقى محاضرته الافتتاحية حول أهمية الشعر عند العرب، ومن ثم نشر عملا عن الأهمية البالغة في المستقبل للدراسات العربية في الغرب، وترجمة لاتينية لقسم طويل من كتاب «مختصر تاريخ الدول» لأبي الفرج بن العبرى بعنوان «نموذج التاريخ العربي»، مع شرح غزير كان يعتبر في زمنه سعة في المعرفة. لقد كان هذا العمل هو أول من بذل قصارى جهده في تعريف الغربيين بالخلافة العربية.

وقام ابن بوكوك كذلك، وهو ادوارد بوكوك الأصغر بترجمة انكليزية لعمل من أعمال الكاتب، العربي الأندلسي أبي بكر بن طفيل (أبي بكر أوربا القرون الوسطى، المتوفي سنة ١١٨٥) وهو رسالة حي بن يقظان تحت عنوان «الفيلسوف الذي علم نفسه» وهى الآن مفقودة، الا أن سيمون أوكلي المستعرب في جامعة كمبريدج قد قام بترجمة حديثة لها سنة ١٧٠٨ بعنوان «تقدم العقل الانساني مصورا في حياة حي بن يقظان». وقد يعتبر هذا الكتاب أول عمل عميق يحتوى على الفكرة الفلسفية العربية ويحدث على الفور تأثيرا دائما في الأدب الانكليزى والتكوين الذهني. نحن نرى مثالا على شعبية هذا العمل في مقطع من «السيرة الذاتية» لـ «ادوارد غبن» مؤلف الكتاب الهام «أفول الامبراطورية الرومانية وسقوطها» (الذى أسس غبن أجزاءه المتعلقة بالخلافة والفتوحات الاسلامية على أعمال مؤرخين عرب من أمثال المكين (٧)، وابن العبرى، وأبي الفداء، ممن تيسرت ترجمتهم في أواخر القرن الثامن عشر)، حيث سجل ان معلمه جون كربي قد نشر في عام ١٧٤٥ «حياة أوتوماتس» بالعنوان الكامل «طاقة الفهم الانساني وامتداده ممثلين بالحالة الرائعة لأوتوماتس، الشاب النبيل، الذى ترك في طفولته من غير قصد على جزيرة منعزلة واستمر في الاقليم المنعزل تسع عشرة سنة منقطعا عن المجتمع الانساني كافة»، وأعاد نشرها في عام ١٨١٢. ورسالة حيّ بن يقظان قد تعتبر ولا شك سلفا لقصة دانيال ديفو «روبنسن كروزو» (١٧١٩)، والتي تمتزج فيها رمال من الرومانس العربي الفلسفي بمغامرات الحياة الحقيقية على بحر الكسندر سلكريك الاسكو تلاندى. وأصلا لكل ما كتب بعد ذلك عن الجزر القاحلة.

وعلى الرغم من هذا الاهتمام بالمآثر العلمية والفلسفية للعالم العربي، وبالتراث الفني من قصصه وحكاياته الأخلاقية، فان الروح الحقيقية لمآثر الأدب العربي لم يكن لها أن تفهم في الغرب وتؤثر تأثيرا عميقا في آدابه الوطنية، حتى اخذ الشعر، الذى هو التعبير الأكثر تمييزا لعبقرية الأدب العربي، طريقه الى المعرفة. وكان ثمة عدة مصاعب تحول دون تقبل هذا الشعر وفهمه بتقاليده وتعدد اشاراته، وقد وصف المستشرق الفرنسي «ر. بلاشير» الشعر العربي بحق بأنه «حديقة سرية»، يتطلب دخولها لا معرفة عميقة باللغة العربية نفسها وحسب، وانما كذلك اعتناق عالم الفكر الاسلامي كله، بدينه وثقافته . ولقد حاضر بوكوك الأكبر، الذي لا يعرف الكلال، حول «لامية العجم» المشهورة لأبي اسماعيل حسين الطغرائي (المتوفى سنة ١١٢٠) ثم نشرها في عام ١٦٦١، ولكن الذي نقل الشعر العربي الى فكر عدد من القراء البريطانيين انما هو السير «وليم جونز» (١٧٤٦ — ١٧٩٤) الذى كان مستشرقا معروفا في أواخر القرن الثامن عشر، فله اهتمام بالهند القديمة يساوى اهتمامه بالعالم العربي والفارسي. وفي عام ١٧٧٢، عندما كان في السادسة والعشرين من عمره، ظهرت قصائده المكونة بشكل رئيسي من ترجمات عن اللغات الأسيوية ، وفي عام ١٧٧٤ ظهر مؤلفه اللاتيني عن الشعر العربي، وفي عام ١٧٨٢ ظهرت ترجمته للمعلقات السبع، التي راجع من أجلها أفضل الشروح العربية كشرح التبريزي وشرح الزوزني. وكانت الترجمة الانكليزية نثرية، ولم يمض على ذلك قرن من الزمان حتى سعى س. ج. وليال (الذى غدا بعد ذلك السير تشارلز) الموظف الهندي بما أحرزه من النجاح الباهر في ترجماته للشعر العربي القديم ولا سيما قبل الاسلام، الى نقل الشعر العروضي للتفعيلات الكمية لهذا الشعر، وتجنب القافية، ولكنه أعلن أن البحر الطويل، مثلا، قد وجد من قبل في عام العروض الانكليزى باعتباره شكلا من أشكال البحر «الأنابستي»، وأن قصيدة انكليزية من مثل «أبت فوغلر» لـ «براوننغ» (على الرغم من أنها غير متأثرة البتة بالنماذج العربية وبعيدة عنها كما نعلم) تشتمل على عدد من الأبيات المنتهية تماما بالشروط الأساسية لبحر طويل انكليزي.

واذا تجاوزنا الجهود الريادية لـ «وليام جونز»، فان الشكل والنموذج المشبهين للشعر العربي، المغايرين تماما للتقاليد الملحمية والغنائية للشعر في الغرب، كانا أطول تأثيرا في الأدب الانكليزى في القرن التاسع عشر، لسبب واحد هو امتلاك ألمانيا للشاعر فريدريش روكرت الذى برع في العربية والفارسية، في حين لم يكن لدى العالم الناطق باللغة الانكليزية شاعر من الدرجة الأولى مثقف بالعربية وقادر على النفاذ الى «الحديقة السرية» للشعر العربي. وقد تمت الترجمات في هذا الزمن على أيدى المستشرقين الأكاديميين، الذين صاغوها في القوالب الأدبية للشعر الغنائي الانكليزى المعاصر. واذا ألقينا لمحة الى تلك الترجمات المجموعة في مقتطفات «الشعر العربي للقارىء الانكليزي» من جمع و. ا. كلاوستن الذي يعرف اللغات الشرقية — لرأينا هذا جليا وباستثناء، الترجمة الرائعة لقصيدة «البردة» الكلاسيكية للبوصيري التي قام بها «ج. و . ردهاوس» فانه يصعب علينا أن ندرك انها ترجمات من العربية وليست هي من قصائد الشعراء الصغار في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر.

ومع ذلك، فمن المفروض أن للعربية فتنة عند شعراء الاحياء الرومانتيكي، بحبهم للغريب، ولم يكن العدد المحدود جدا من الترجمات المتيسرة من الشعر والسيرة العربيين

دون تأثير محدد أكيد. وهكذا قام «برسي بيش شلي» في عام ١٨٢١ بمحاكاة قصيدة عربية مؤسسة على مقطع من سيرة عنترة ابن شداد، المحارب العربي المشهور في القرن السادس وكاتب احدى المعلقات، وكان «تريك هاملتن» الاسكوتلاندى قد نشر قبل سنتين ترجمة الثلث الأول أو نحو ذلك من سيرة عنترة بعنوان «عنترة، الرومانسي البدوي» ولقد استفاد شلي منه. وبعد عقدين في ١٨٤٢، كتب الفرد (الذى غدا بعد ذلك اللورد) تنيسون (١٨٠٩ — ١٨٩٢) قصيدته «لوكسلي هول» التي علق عليها ابنه هالام فيما بعد حين كتب في «الذاكرة»: «انني أذكر قول ابي ان ترجمة السير وليم جونز للمعلقات، وهي القصائد العربية السبع. المعلقة في الكعبة بمكة، قد أمدته بفكرة القصيدة «ولا شك أن مقاطعها الافتتاحية تذكر بـ «كليشة» النسيب في القصيدة العربية القديمة، وهي حزن الشاعر عند آثار مخيم حبيبته السالف (الوقوف على الأطلال):

أخلائي دعوني هنا قليلا، حتى الصباح الباكر
دعوني هنا، وعندما تريدونني، فانفخوا في البوق
هذا المكان، وكل ماحوله، هو منذ القديم نداء الكروان
والومضات الحزينة حول أرض المغرب تطير فوق «لوكسلي هول»

وشبيه بهذه الأبيات مانجده في تأمل الشاعر فيما بعد وهو يحدق في «لوكسلي هول»، وطنه الحبيب، محاكيا مايصفه الشاعر العربي لحبيبته من رحلاته الليلية في الصحراء:

في عدد من الليالى رأيت النجوم الثريا،
ترتفع بين الطيف اللطيف
وتتألق كسرب من الحباحب (٨) في الضفيرة الفضية.

هذا الى أن تنيسون قد حاول بنجاح مرموق أن يقلد أشطر القصيدة العربية شأن السير تشارلز ليال فيما بعد، بالأشطر الثنائية، ذات الضربات الثماني في الشطرة، وللمطابقة قام السير «وليم جونز» بكتابة المعلقة العربية بالحروف اللاتينية الى جانب ترجمته لها.

وفي ١٨٥٦ ، ولم يكن قد مضى وقت طويل حتى نشر «ادوارد فيتزجرالد» (١٨٠٩ — ١٨٨٣) ترجمته عن الفارسية لرباعيات الخيام، التي أحرزت، بعد انطلاق بطيء، نجاحا بعيدا ويمكن أنها قد حفزت الأذواق الى الشعر الاسلامي والى أدب من نوع آخر، وخاصة مايعبر عن عالم الارهاق، والحياة الجبرية، والنظرة الساخرة، في نغمة مؤتلفة مع جو الشك الديني في أواخر العصر الفيكتوري، كالشك الموجود في شعر ماتيو آرنولد، وآرثر هف كلاوف وتنيسون. وقد أثار ماكتبه «الفرد فون كرمر» في عام ١٨٨٩ من الأبحاث حول الشاعر العربي أبي العلاء المعري ومن ترجمات شعره الاهتمام بحلقات البحث في الفلسفة التشاؤمية للشاعر الأعمى، على الرغم مما سببه من تحريف في تقديم هذا الكاتب، الذي لم يكن في الحقيقة بعيدا عن الاتجاه السائد في الدين والثقافة الاسلاميتين، ولم يكن «شاعرا رجيما» قبل ثمانية أو تسعة قرون من ظهور هذه الظاهرة في أوروبا الغربية.

أننا نستطيع أن نرى أثر النزعة التشاؤمية الفلسفية عند الشعراء الاسلاميين في انكلترا في أواخر العصر الفيكتورى في شخص السير «ريتشارد بيرتون» الذى كان يمتلك معرفة عميقة بآداب العوالم العربية والفارسية والهندية المكتوبة ولهجاتها المحلية، والذى عاش الكثير من حياته في الشرق الأوسط والهند. وهو معروف في الأدب الأنكليزى في الدرجة الأولى بوضعه مترجما لكتاب كان في زمنه جريئا في صراحته، ومن أدنى الأنواع للأدب الجنسي، هو كتاب «ألف ليلة وليلة» الذى ترجمه ترجمة حديثة عد أول ترجمة فرنسية مترجمة عن «الروض القطر» للشيخ عبد الله عثمان النفزاوى، وقد كان «بيرتون» كذلك كاتب قصيدة انكليزية طويلة سماها «قصيدة الحاج عبده اليزيدى»، عن وضع القانون الأعلى. وتتكون هذه القصيدة من ٢٦٨ شطرا، وكما أن «فيتزجرالد» قد نشر ترجمته للرباعيات منفلة من الاسم، فان «بيرتون» قد نشر القصيدة سنة ١٨٨٠ في طبعة محدودة وعلى أنها عمل من صديقه، العالم الفارسي حجي عبده اليزدي الذى يطمح، كما كتب «بيرتون» نفسه في ملاحظاته حول القصيدة الى أن «يبشر بدينه الذى هو ترجمة شرقية لمحبة الخير ممزوجة بالشكوكية، أو كما نقول الآن، العادة العلمية للعقل». وهو معاد لكل أشكال الدين الرسمي، شأن «بيرتون». وقد توجهت الظروف الجبرية للقصيدة كافة — رغم أن كاتبها قد أنكر بعنف أن القصيدة من الرباعيات الرديئة — الى الجمهور الذى نما تقديره لنوع من السوداوية اللطيفة والاستسلام في وجه القدر مثل استسلام عمر الخيام، وهذه الطرائف في التفكير هي ماتعتبر الآن طرائف نموذجية عربية. ومن المحتمل جدا أن «بيرتون» كان على اطلاع جيد على الشعر العربي قبل الاسلام الذى عبر عن عواطف مشابهة في القرن (القلق) قبل نهوض الدين الاسلامي الراسخ، والذى يحتوي شعره على مثل هذه البواعث «ذم الدهر» واللوعة لـ «صروف الزمن». ولقد تمتعت القصيدة بشعبية جعلتها تطبع ست عشرة طبعة في أربعين سنة، ولكنها لم تنجح في ان تجعل موضوعا معقدا من موضوعات الشعر العربي— وهو موضوع ثانوى— يقتحم الغرب ويغدو في متناول الجمهور.

ويمكننا أن نرى تأثير الشرق والأدب العربي خاصة في تشكيل الصورة المنتشرة عموما عن الحياة الشرقية المتصورة، والمؤسسة غالبا على بغداد خلال العصور الوسطى في «ألف ليلة وليلة». وهذه الصورة معروفة على نحو أوسع من المعرفة الصحيحة الدقيقة للأدب العربي المنتقلة الى بريطانيا بالترجمات أولا، ثم بما قام به الكتاب الانكليزى من الدراسة المباشرة للكتاب العرب، رغم أنه من العسير ملاحظة هذه الظواهر قبل «بيرتون». أما في فرنسا فقد تركز الاهتمام بصور الاحياء الرومانتيكي على العرب وعالمهم بشكل خاص، كما نرى في أعمال «فيكتور هوغو» و«جيرارده نرفال»، مثلا، ولعله انعكاس لتنامي الاهتمام الاستعماري الفرنسي بشمال افريقيا، ومصر والشرق، على حين كان الكتاب الألمان مثل غوته، وأوغست فون بلاتن، وروكرت، أكثر اتصالا بالشعر الايراني والفارسي، أما الكتاب البريطانيون، فقد كان اتصالهم بالعالم الهندي، لأسباب واضحة، يجذبهم الى ذلك الجانب من الشرق الأوسط.

ومالت هذه المعرفة الغامضة للحياة الشرقية بالشعر الصافي الى امتداد ما، كما نرى من عناوين بعض قصائد اللورد بيرون على

سبيل المثال: «الكافر، شظية من حكاية تركية» و «عروس أبيدوس، حكاية تركية» و «حصار كورنيث» ولكنها ملاحظة بشكل واضح في النثر والشعر النثرى. و «لا لا روخ» (١٨١٧) من تأليف «توماس مور» عمل مزيج من النثر والشعر وذو قالب نثرى على نمط «ألف ليلة وليلة» يقدم أربع حكايات شعرية في بلاد الفرس والهند «إسميا»،ولكنها في الحقيقة ليست غير ذلك الجو الشرقي المعمم المشار اليه أعلاه. ولقد حققت «لا لا روخ» شعبية بالغة، وكان (مور) مزهوا بابداعه للغاية، وكان قد شغل نفسه في الفترة التمهيدية بالوثائق الأولية للشرق الاسلامي، مثل الببليوغرافيا التاريخية «خزانة الكتب الشرقية» لـ «بالتازاز دربلو» (١٦٢٥ — ١٦٩٥) وأعمال السير «وليم جونز». ولقد تباهي بأنه: «على الرغم من أنني لم أكن في الشرق، فان كل من كان هنالك قد صرح لي بأنه هيهات أن يكون ثمة عمل أكمل من تصويرى له شعبا وحياة في «لا لا روخ»، ولكن قصيدته، كما لاحظ «ه.ا.ر.جيب بجفاف» مجرد نقل لهجات سكوت من وطنه الى الهند». والحقيقة هي أن القرون الوسطى والاستخدام اللامع للون المحلي في كل من روايات سكوت وقصائده وأغنياته الشعبية قد عرضت على نحو جيد تعصبه للشرق والعالم العربي. وتعالج قصيدته «رؤيا دون رودريك» (١٨١١) قصة شبه خرافية عن آخر ملك قوطي لاسبانيا، عشية الفتح العربي سنة ٧١١، وهو موضوع قد عالجه معاصرا، «روبرت ساوثي» في (رودريك، آخر القوطيين ١٨١٢)، و «ولتر سافاج لاندور» في (الكونت جوليان ١٨١٢)، أما روايته «الطلسم» (١٨٢٥)، فهي حكاية من حكايات الصليبيين على الأرض المقدسة في زمن «ريتشارد» قلب الأسد والسلطان صلاح الدين، ذات أوصاف بارعة عديدة للحياة اليومية الاسلامية والطقوس الدينية. والروح نفسها تسرى في رواية «بنجامين دزرائيلي» نصف السياسية، ونصف الرومانتيكية «تانكرو أو الصليب الجديد» (١٨٤٧)، التي يسافر فيها البطل «تانكرو» الى الشرق والى سيناء والقدس والى جبال لبنان وسورية، ويتعرض للمكائد، ولابد أن دزرائيلي قد اعتمد في اللون المحلي هنا على تقارير الرحالة الانكليز والأوربيين الآخرين في القرن التاسع عشر الذين جابوا هذه الأقاليم، من أمثال «جون لويس بيركهارت»، و«وليم هاملتن»، و«جيمس سلك بكنغهام» وسواهم، أكثر من اعتماده على المادة العربية مباشرة.

والواقع أنه لم يتم الا في أوائل القرن العشرين ذلك التأثير العربي الخاص، القائم على معرفة الشرق الأوسط، وعلى تعاطف وتفهم للعالم العربي أعمق مما رأيناه من قبل. فالشاعر والكاتب الانكليزى «ولفرد سكوت بلنت» (١٨٤٠ — ١٩٢٢)، الذى كان نصرا متحمسا للعرب في مصر عندما كان اللورد «كرومر» نائبا للقنصلية فيها، وترجم مع زوجته «الليدى آن» سنة ١٩٠٣ «القصائد الغنائية السبع لبلاد العرب الوثنية» وهي المحاولة الأولى بعد قيام السير «وليم جونز» بترجمة المعلقات الكاملة ترجمة أدبية. وكانت «الليدى آن» مسؤولة عن البحث العربي، يساعدها على الترجمة بعض الباحثين المصريين، على حين كان زوجها يقوم بوضعها في شكل شعرى. ولكن «القصائد الغنائية السبع» على الرغم من الاطراء الذى لقيته في العالم العربي لم يعد طبعها بعد نشرها. والنجاح الأكبر في نقل جو الحياة العربية في القرون الوسطى الى الجمهور العام وقد حققته مأثرة «جيمس الورى فلكر» (١٨٨٤ — ١٩١٥)، وان كانت قد نشرت بعد موت صاحبها.

بحث فلكر مجرى الحياة في «الخدمة القنصلية الشرقية»، واستعدادا لهذا البحث درس في كمبريدج اللغات العربية والفارسية والتركية، على يد الباحث الكبير البروفسور «أ.ج براون»، الذى أسمع طلابه في حلقات الدرس تسجيلا صوتيا لجزء من سيرة عنترة كان قد رواه قصاص محترف في القاهرة. وقد بدأ فلكر كتابة الشعر وهو لما يزل طالبا. وأنفق السنوات الخمس الأخيرة من حياته القصيرة بسخاء في استانبول، وأزمير، وبيروت نائبا للقنصل. وكتب عدة قصائد مستوحاة من الأنماط الاسلامية مثل «أبواب دمشق» وأنشودة الاسكندر» و «كتاب ياسمين وهمام» (من قصيدة لسيدة تركية)، ولكنه في ١٩١١ قد أثر في قطعة موسيقية رائعة لمسرحيته الرومانتيكية «حسن» وهي مسرحية تزعم أنها مستوحاة من بعض الحكايات التركية عن عجوز بسيط اسمه حسن، يقيم في بغداد في العصور الوسطى، ابان خلافة هارون الرشيد ووزيره جعفر البرمكي، وهي مستمدة أيضا والى حد بعيد من «ألف ليلة وليلة» ولكنها قد اغتـــنت بقراءات «فلكر الشخصية في الأدب الاسلامي. ان عبقريته الشعرية قد حولت كل هذه العناصر الى عمل أدبي رائع، يتوشى فيه النثر المنمق بالغنائيات المحببة، وقد اقتبس بعضها كـ «الرحلة الذهبية الى سمر قند» من أعماله الأولى. وكان بعض الغربيين قد تنبهوا الى جو الشرق الاسلامي على نحو جيد، وعندما قدمت المسرحية في لندن سنة ١٩٢٣، تميزت بأنها قطعة ممتازة من الكتابة الشعرية والعاطفة المأساوية المعذبة، ولقد أصابت «سارة سيرايت» عندما علقت على هذه العاطفة بأنها «تمحو الزخارف المبهرجة لقرن من الليالي العربية الزائفة» □

• جميع هوامش البحث من وضع المترجم.

١ — دار الاسلام: هي البلدان الخاضعة لشريعة الاسلام ولحكم حاكم مسلم. وتقابلها «دار الحرب» وهي البلاد التي لم تدخل تحت سيادة الاسلام والتي تكون مسرحا للجهاد الى أن يتم فيها الفتح.

٢ — بما فيه من «أدب» أى بما فيه مما «يؤدب الناس الى المحامد، وينهاهم عن المقابح» وهذا هو المعنى الأصلي لكلمة «أدب» (أنظر لسان العرب).

٣ — شبه الجزيرة الايبارية: اسم أطلق على شبه جزيرة أسبانيا والبرتغال.

٤ — سراى: مدينة على ضفة نهر الفولغا، وهى العاصمة السابقة لـ «القبائل الذهبية» وتدعى اليوم «تسارتيسن»، وتمتد على مرفق نهر الفولغا المقابل لستالينغراد.
راجع:

٥ — مبشر بن فاتك (المتوفى سنة ١١٠٦م) هو أبو الوفاء، المدعو بالأمير: حكيم أديب، أصله من دمشق، وموطنه مصر. له «مختار الحكم ومحاسن الكلم» نقل عنه ابن ابي أصيبعة في عدة مواضع، «وسيرة المستنصر» في ثلاثة مجلدات. قال ياقوت: وله تواليف في علوم الأوائل، وملك من الكتب،ما لا يحصي عدده كثرة. أنظر: خير الدين الزركلي: الأعلام جـ/٦، ص/١٥٣

٦ — اسمه الكامل «أنوار التنزيل وأسرار التأويل» ويعرف بتفسير البيضاوى.

٧ — المكين (١٢٠٥ — ١٢٧٣م) هو جرجس بن العميد ابن الياس، المعروف بالمكين، أو الشيخ المكين «ويقال له ابن العميد: مؤرخ من كتّاب النصارى السريان أصله من تكريت (على دجلة) ومولده بالقاهرة. له كتاب «المجموع المبارك». وقد ترجم الى اللاتينية والفرنسية والانكليزية. أنظر «الأعلام» للزركلي.

٨ — الحباحب: ذباب يطير بالليل، وكأنه نار، له شعاع كالسراج.



مركز التنقيب وهندسة البترول اكسبك

• السيد أحمد البساه أحد المشتركين في برنامج تطوير الكفاءات الوظيفية والمهنية للسعوديين. يقوم بتشغيل لوحة المفاتيح الخاصة بجهاز — ٧٣٥٠ لمعالجة الصور الملونة.

• مثال لخريطة كنتورية تبين نقاط الارتفاع والانخفاض لتشكيل جيولوجي في باطن الأرض جرى اعداده بواسطة جهاز اي. بي. ام. «٧٣٥٠».

يضم مركز الكمبيوتر في مبنى «اكسبك» أجهزة استكشاف متطورة تساندها أحدث أجهزة الكمبيوتر في العالم. ومن هذه الأجهزة جهاز آى. بي. ام. ٧٣٥٠ لمعالجة الصور الملونة بعرضها على شاشات خاصة بوصلها بأكبر وأحدث أجهزة الكمبيوتر. وقد جرى تركيب وحدة من هذا الجهاز المتطور كنموذج أولي في مركز الكمبيوتر في مبنى اكسبك.

وتكمن أهمية هذا الجهاز في أنه يتيح الفرصة للعاملين عليه لتوفير معلومات دقيقة وسريعة يستفيد منها مهندسو التنقيب ومهندسو البترول المعنيون باستكشاف تجمعات الزيت والغاز في التكوينات الجوفية في باطن الأرض. كما يتمكن المهندس خلال ثوان معدودات من مشاهدة الطبقات الجوفية أو أي مقطع عرضي أو طولي منها وعلى العمق الذى يريده على شاشة الجهاز اضافة الى معاينة تلك الصور الملونة من أي زاوية أووضع يرغب فيه سيما وأن هذا الجهاز يوفر صورا ورسوما بيانية مجسمة أي ثلاثية الأبعاد، لها أهميتها القصوى فيما يتعلق بأعمال الزيت والغاز. ومن مزايا هذا الجهاز أنه يمكّن الخبراء في دائرة التنقيب من معالجة وتفسير المعلومات الضخمة بكفاءة وفعالية وسرعة متناهية بتخصيص لون معين من مجموع ٤٠٩٦ لونا لأي نقطة أو مقطع من التكوينات الجيولوجية التي يود المهندس أوالخبير دراستها □

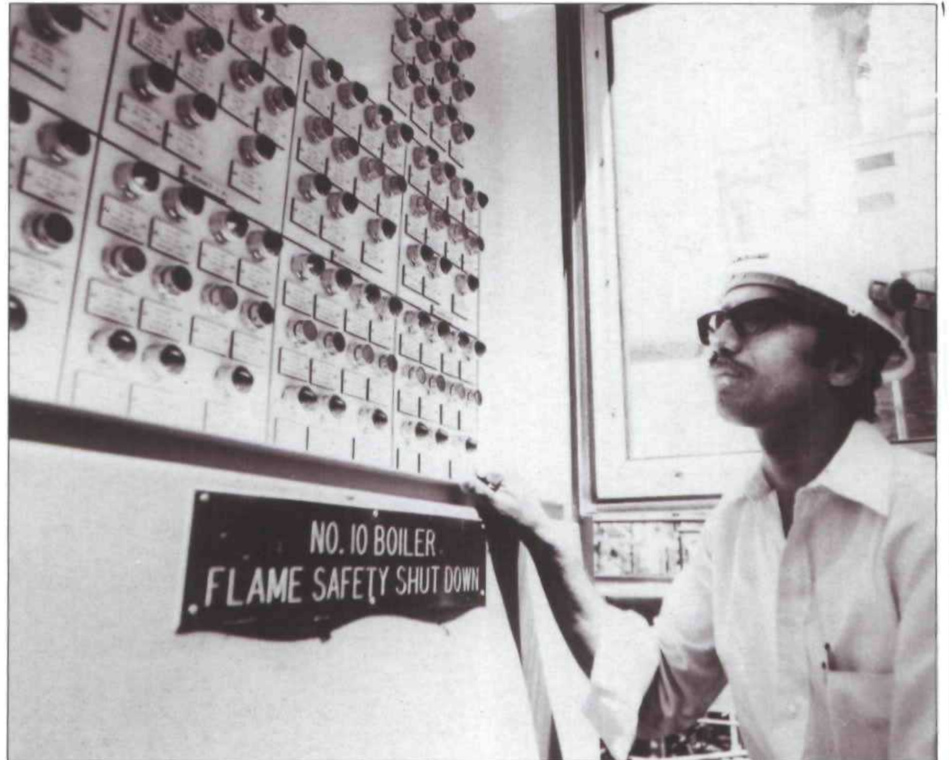
ورقة في أرامكو

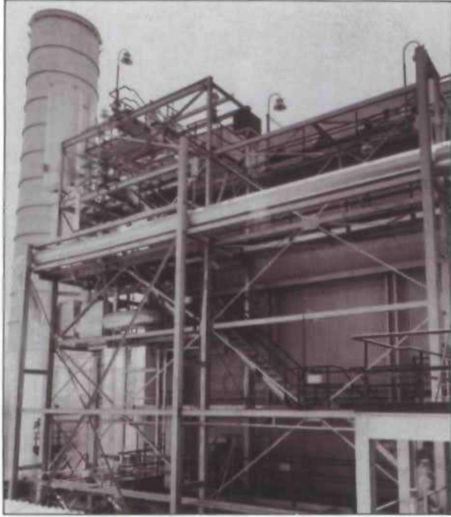
اضافة مرجل جديد في معمل التكرير برأس تنورة

أجريت مؤخرا الاختبارات والفحوص النهائية على أحدث ماتم اضافته الى شبكة توليد البخار في معمل التكرير برأس تنورة، وهو المرجل رقم — ١٠ الذي يزن ٣٧٥ طنا.

وبوجود وفرة من البخار تبلغ ٧٥٠ ٠٠٠ رطل في الساعة، فان المرجل رقم — ١٠ سيزيد من طاقة توليد البخار في معمل التكرير من ٢.٨٥ مليون رطل في الساعة الى ٣.٦٠ مليون رطل في الساعة اضافة الى أن الاحتياطي من البخار سيتضاعف ثلاث مرات. والأهم من ذلك هو أن المرجل الجديد سيتيح مرونة أكبر في العمليات وفي أعمال الصيانة اللازمة لشبكة توليد البخار في معمل التكرير برأس تنورة.

ان اضافة المرجل الجديد قد ساعدت على برمجة عمليات التفتيش والمعاينة، وذلك تفاديا لأية أخطار قد تتعرض لها شبكة انتاج البخار. ونظرا لوجود كمية كبيرة من احتياطي البخار





١ — السيد حبيب عباس، مراقب مرجل الضغط العالي يتفقد لوحة جهاز ايقاف وتشغيل اللهب في المرجل.

٢ — مرجل الضغط العالي الجديد رقم — ١٠ في معمل التكرير برأس تنورة.

فان عملية زيادة الحمولة على المراجل الأخرى ستخف حدتها، وبالتالي تؤمن ظروف تشغيل أفضل.

هذا وتساعد الاضافة في المرجل رقم — ١٠ على تأمين الكفاءة الميكانيكية للشبكة اضافة الى تأمين ضوابط الاستجابة للتغيرات في عمليات الشبكة.

ونتيجة لاضافة المرجل رقم — ١٠ فقد تطلب الأمر ايجاد العديد من المرافق المساعدة. كما جرى انشاء المحطة الفرعية رقم ١٠٨ اضافة الى اجراء توسعة رئيسية على معمل توليد البخار المخفض.

ومن ميزات اضافة المرجل رقم — ١٠ والمحطة الفرعية رقم ١٠٨ وكذلك شبكة تلقيم المياه المنخفضة الضغط أنها هيأت ظروف تشغيل بالنسبة لقسم منافع معمل التكرير بشكل خاص ولادارة معمل التكرير بشكل عام □

أخبار الزيت المص

ثلاث منصات انتاج بحرية جديدة

يشهد مطلع عام ١٩٨٤ بدء مرحلة جديدة من عمليات الانتاج في المناطق المغمورة في السفانية، وذلك باضافة ثلاث منصات انتاج بحرية جديدة في حقل الظلوف البحري تشغل الواحدة منها ١٢ بئرا.

تعتبر هذه المنصات الثلاث أكبر منصات بحرية متعددة الأغراض تستخدمها أرامكو حتى الآن. وسيؤدي استخدامها الى خفض تكاليف الانشاء والصيانة، اضافة الى الاقلال من العوائق البحرية عن طريق دعم ومساندة ضعف عدد الآبار التي تقوم بها المنصات المماثلة التي تشغل كل منها ست آبار.

ويقول أ. هـ. ماك كورماك، الذي يشغل وظيفة مهندس مشروع في ادارة المشاريع في المنطقة الشمالية، ان من أهم ميزات المنصات الجديدة هذه أنها ستسمح باستثمار فعلي لجزئي مكامن الزيت العلوية والسفلية في حقل الظلوف، اذ لم يتمكن حتى الآن استثمار الا الجزء السفلي من مكامن الزيت والذي يحتوي على زيت خام متوسط. وبوجود التصميم الجديد فانه سيكون بالامكان استثمار جزئي المكمن في وقت واحد، وذلك عن طريق تشغيل ست آبار تخصص للجزء العلوي من المكمن الذي يحتوي على زيت خام ثقيل النوعية، وست آبار أخرى للجزء السفلي.

وستقف المنصات الثلاث في الجهات الشمالية الغربية، والجنوبية الغربية، والجنوبية الشرقية، من زوايا حقل الظلوف في مياه يتراوح عمقها بين ١٢٦ و١٤٥ قدما. وسيتدفق الانتاج من القسم السفلي من المكامن الى معملي الظلوف لفرز الغاز من الزيت ١ و٢، وسيربط الانتاج من القسم العلوي من المكمن مع معملي الظلوف الجديدين لفرز الغاز من الزيت ٣ و ٤ في عام ١٩٨٤م. وتبلغ مساحة المنصة الواحدة، والتي صممت على شكل هرمي، ١٤٠ × ٣٥ قدما من أعلى المنصة و ١٦٥ × ٥٣ قدما من أسفل المنصة. وسيدعم هيكل مكون من أرجل ثمانٍ مغروسة في قاع البحر، بمساعدة أعمدة أنبوبية من الفولاذ قطر الواحد منها ٤٢ بوصة، وتتألف المنشآت من أربعة أسطح: السطح السفلي، ومنصة فوهة البئر، والسطح المركزي، ومهبط الطائرات الحوامة. وسيجري تأمين مرسيين للقوارب بهدف تسهيل عملية المواصلات مع هذه المنشآت البحرية.

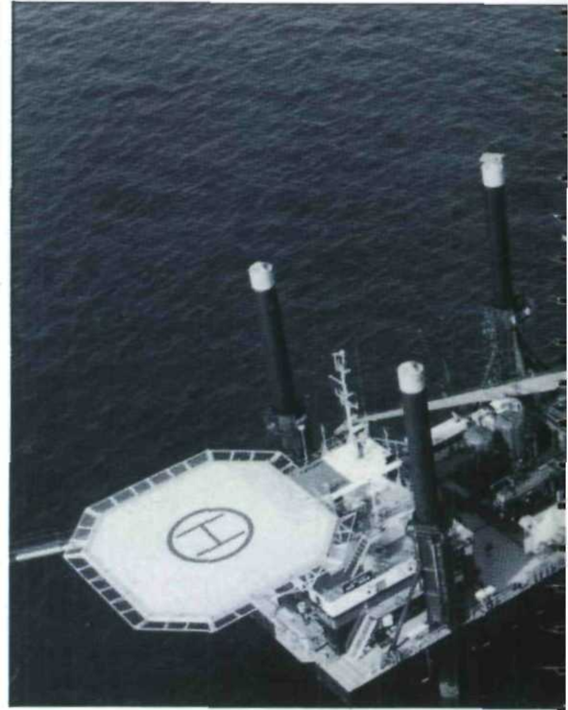




عملية تثبيت المنصة البحرية، التي تضم ١٢ بئراً، في مياه حقل الظلوف البحري

ويضم السطح السفلي، الذي يرتفع حوالي ٣٦ قدما عن سطح مياه البحر، المضخات وملحقاتها من صمامات وأنابيب. كما يقوم سطح فوهة البئر الذي يرتفع ٤٩ قدما عن مستوى سطح البحر بدعم أفواه الآبار الموجودة فوق المنصة في وضع متقابل بحيث يتم تشغيل ست آبار من السطح الشرقي وتشغيل الآبار

ورقة في أرامكو



الست الأخرى من السطح الغربي للمنصة.

هذا وستكون الأنابيب المتشعبة التي تربط خطوط الأنابيب من فوهات الآبار مع خطوط التدفق المؤدية الى معامل فرز الغاز من الزيت في الظلوف، ستكون موجودة على السطح المركزي على ارتفاع ٥٩ قدما. كما سيضم السطح المركزي أيضا شبكة ايقاف العمل في الحالات الطارئة، والتي جرى برمجتها لايقاف الانتاج من أية بئر، أو من جميع الآبار في حال حدوث خلل طارىء. كما سيتم تشغيل آلة رافعة ضخمة على السطح المركزي لتحميل ورفع معدات الصيانة. وسيجري تثبيت مهبط الحوامات، الذي تبلغ مساحته ٦٠ قدما مربعا، فوق السطح المركزي على ارتفاع ٨٥ قدما من سطح مياه البحر □

اصلاح خط للأنابيب وحركة المرور فوقه مستمرة

تبنت أرامكو حديثا أسلوبا فنيا جديدا لاصلاح خطوط أنابيب الزيت لاسيما الممتدة تحت الأرض.. وقد جرى تطبيق هذا الاسلوب على وصلة من خط الأنابيب الذى يصل رأس تنورة عن طريق القطيف،يبلغ طولها ١٨٣ مترا.

ويقضي هذا الاسلوب ادخال وصلة جديدة في الوصلة المراد اصلاحها أو استبدالها. وبدأت العملية بتحويل مرور الزيت الى خط أنابيب آخر، ثم ازالة وصلتين من خط الانابيب، واحدة طولها ٦٠ مترا والأخرى ٢٤ مترا، من طرفي الوصلة المراد اصلاحها لتسهيل انجاز العملية، بعد ذلك جيىء بخمس عشرة وصلة من الانابيب طول كل منها اثنا عشر مترا، ثم جرى لحمها معا لتشكل الوصلة الجديدة المراد ادخالها عبر الوصلة القديمة. بعد ذلك أجريت عملية تشحيم كاملة لجوف الوصلة القديمة لتسهيل عملية انزلاق الوصلة الجديدة داخلها ثم ربط أحد طرفي الوصلة الجديدة بحبال مدت داخل الوصلة القديمة وربطت بجرارين ضخمين من الناحية المقابلة. ثم أحضرت خمس جرارات ضخمة ذات رافعات جانبية لتساعد في ادخال الوصلة الجديدة داخل الوصلة القديمة من ناحية،بينما تولى الجراران الآخران سحبها من الناحية الاخرى. وبعد تثبيت الوصلة الجديدة في مكانها، لحمت بها الوصلتان اللتان أزيلتا من قبل واحدة في كل جانب □



جانب من عملية الاصلاح في خط الانابيب الذى يصل رأس تنورة عن طريق القطيف وتبدو فيه وصلة من الأنابيب وبعض الجرارات ذات الرافعات الجانبية.

كبرياء الهوى

شعر: زينب اسماعيل حجي / القاهرة

ايه ياقلب .. آن أن ننساه — بعد أن غاب في الفيافي .. صداه
هل سنبقى، بربقة الأسر، نهفو — لخئون؟ .. لا ، ذاك ما نأباه
قد فرغْنا من الغرام.. وعُدنا — نمضغُ اليأسَ .. في صقيع دُجاه
ذاك حظى من الهوى .. ونصيبي — ليس يُجدى ترديدُ : «واأسفاه»

كان وقعُ الفراق .. ان مر يوم — دون لقيا .. مؤججا للظاه
وبدنيا عرائسٍ لمروجٍ — يفرش البدرُ أفقَها بضياه
نتلاقى .. مابين كرمٍ، وزهرٍ — مشرئبٍ .. يُشيرُنا بشذاه
كم رشَفْنا كئوسَ طهرٍ وصفوٍ — مُترعاتٍ .. ما لامستْها شفاه
وغدَوْنا حديثَ أُنس الليالي — للمحبين ... مالنا أشباه

كنتُ وحْياً لفنَّه ... يتغنّى — بهوانا ... بصبحِه ومساه
بقريضٍ، يتم في هيمان — عن تفانٍ ... للصَّب ما أشجاه
بزَّ في صوغِه، بروعة سبك، — كلَّ ماقال (قيسُ) .. في ليلاه!

ماله اليومَ قد تناءى بعيدا — عن تُخومى .. أسْمَرت قدماه؟!
ايه يا قلبُ، ذاك عهدٌ تولّى — مثل حُلم .. قد شاقنا برؤاه
اسرعِ الخطوَ للسّلوِّ ... فاني — لستُ أرضى تلفُّتاً لحِماه
عزَّةُ النفسِ شيمتي وردائي — ومحالٌ إن عادَ أنْ ... ألقاه!

